

تاريخ جوه الصقلي

قائد المعزدين بن عبد الفاطمي

تأليف

علي بن أبي الحسن

دبلوم المعلمين العليا

والحائز لدرجة ليسانسيه في الآداب
وماجستير في الآداب (M.A.) من الجامعة المصرية
والمدرس بالمدارس الأميرية

وهي الرسالة التي تقدم بها إلى الجامعة المصرية في مايو سنة ١٩٣٣
ونال بها وبغيرها من الامتحانات درجة أستاذ في التاريخ

الطبعة الأولى

١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م

obeikandi.com

تصدير الكتاب

بقلم الدكتور حسن ابراهيم حسن

أستاذ التاريخ بكلية الآداب

لقد وضعت كلية الآداب نظاماً دقيقاً للدراسة لدرجتي الماجستير والدكتوراه . ولاريب في أن هذا النظام لا يقل دقة عنه في جامعات أوروبا ، اذ لا يسمح للطالب بدخول امتحان الماجستير إلا اذا كان حاصلاً على درجة الليسانس ، حيث يدرس كل فروع التاريخ وكذا اللغات الانجليزية والفرنسية واللاتينية والألمانية ، كما يجب أن يكون قد مضى على نجاحه في امتحان درجة الليسانس سنتان على الأقل . فاذا أقر الرسالة الأستاذ المشرف على البحث الذي يعده الطالب لامتحان هذه الدرجة شكلت لجنة من ثلاثة من أساتذة الكلية ومن بينهم أحد الأساتذة الأجانب عادة . فاذا رأت اللجنة صلاحية هذه الرسالة للمناقشة ، وضعت أسئلة الامتحان التحريري وحددت موعداً لمناقشة الرسالة .

وإن الشخص الذي يشتغل بهذا البحث لابد أن يصل الى مستوى لائق في اللغات الأجنبية ، كما تزداد مادته العلمية من قراءة الكثير من المصادر العربية والأوربية . فضلا عما لذلك من الاثر في مستواه الفكري ، ولا سيما فيما يتعلق بطرق البحث . وقد استفاد الأستاذ على ابراهيم حسن كثيراً من هذا النظام ، وأرجو أن يستفيد أكثر من ذلك في مؤلفه الذي سيتقدم به لامتحان الدكتوراه .

لقد عني المؤلف في هذه الرسالة بدراسة ناحية من أهم نواحي تاريخ مصر

الاسلامية التي لاتزال غامضة مبهمة ، والتي يقضى علينا الوفاء لبلادنا بأن نغنى باستقصائها لنقف على ما كانت عليه بلادنا من حضارة وقوة ومجد ، ولاغرو فان آثار مصر منذ الفتح الاسلامى قد درست أو كادت ، كما لاتزال المعلومات التاريخية التي دونت عنه مبعثرة مشتتة في بطون الكتب ، ولاسيما في مؤلفات الكندي وابن زولاق وابن منجب الصيرفي وابن ميسر وابن دقاق والمقرئزي والقلقشندي وأبي المحاسن وابن الجيعان والسخاوى ، وغيرهم ممن عنوا بتاريخ مصر الاسلامية . هذه المصادر لاتزال في حاجة ماسة الى القراءة والدرس للوقوف على ما كانت عليه مصر في العصر الاسلامى .

وإن عصر جوهر الصقلي - ذلك العصر الذى فتح فيه الفاطميون مصر وأسسوا فيها الحضارة الفاطمية - لمن أهم عصور التاريخ المصرى . لذلك كان جوهر لا يقل أهمية عن عمرو بن العاص وأحمد بن طولون ومحمد بن طنج الاخشيد وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس ومحمد على باشا ، وغيرهم من مشهورى أمراء مصر وسلاطينها .

وكان لبحث هذه المصادر التاريخية على هذا النحو أثر كبير فى حياة المؤلف من حيث تنمية ملكتى التحليل والنقد عنده ، وهو أهم ماترمى اليه الدراسة الجامعية . ولولا صلة القرابة التي تربطنى بالمؤلف ، لوفيته حقه من الثناء ، لذلك المجهود الذى بذله فى تأليف هذا الكتاب ونشره حرصاً على إفادة بنى وطنه خاصة والمشتغلين بالتاريخ الاسلامى عامة .

وقد وفق الأستاذ على الى حد كبير فى هذا البحث الطريف ولاسيما فى معالجته لكثير من النواحي الدقيقة ، التي لم يسبقه اليها أحد فى تاريخ جوهر ، وبخاصة فيما يتعلق بموطنه الأصيل ، ونشأته ، وأثره فى توطيد دعائم الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ، كذلك فتح مصر والشام والحجاز مما مهد الطريق لمن يريد استقصاء تاريخ مصر فى هذا العصر .

وتمتاز الرسالة فوق غزارة مادتها ، بسمولة العبارة ومناقشة الحوادث ،

وهى مما لا يستغنى عنه طلبة المدارس العالية وطلبة الجامعات المصرية
والأزهرية ، وغيرهم ممن يعنون بتاريخ مصر الإسلامية . ولا غرو ففى
تمدنا بصفحة مجيدة من صفحات تاريخ بلادنا

حسن ابراهيم حسن

٥ أكتوبر سنة ١٩٣٣

مقدمة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قد اخترت حياة جوهر الصقلي ، قائد المعز لدين الله الفاطمي ، موضوعا لهذه الرسالة ، لما كان لذلك القائد العظيم والفاتح الكبير من الأثر في تاريخ العالم الإسلامي عامة وتاريخ مصر الإسلامية خاصة ، لاسيما وأنه هو الذي فتح مصر وأقام سلطان الفاطميين في الشرق .

لم يكن هناك تاريخ خاص بجوهر ، اللهم الا هذه الشذرات المبعثرة في بطون الكتب العربية والأفريقية ، تلك الشذرات التي لم يُعن أحد بجمعها في كتاب خاص ولم يتناولها أحد بالبحث والنقد . لذلك أجهدت نفسي في استقصاء كل ما يتعلق بتاريخ هذا القائد وتمحيص أخباره وآثاره ، مستعينا في ذلك بالمادة التاريخية التي خلفها لنا المؤرخون ، والتي استطعت بها أن أوضح الكثير من المسائل الغامضة في هذه الناحية من نواحي تاريخ مصر الإسلامية .

وقد عنيت بدرس كل ما كتب عن حياة ذلك القائد ، والدور السياسي الذي لعبه في تاريخ مصر . من ذلك تأسيس مدينة القاهرة التي لا تزال حاضرة الديار المصرية إلى اليوم ، وبناء الجامع الأزهر ، ونشر المذهب الفاطمي ، وفتح مصر الشام وفلسطين ، وتوطيد سلطان الفاطميين فيها ، وصدغارات القرامطة عن مصر ، وهزيمة أفتكين ومن حالفه من القرامطة . كل هذه مسائل لم يتناولها أحد بالبحث والتمحيص على النحو الذي فصلناه .

وأرجو أن أكون قد وفقت في هذا البحث بعض التوفيق ، والله أسأل
أن يهدينا سواء السبيل .

وإنتى أتقدم بالشكر الجزيل إلى حضرة أخى الأستاذ الدكتور حسن
ابراهيم حسن لما أمدنى به من الارشادات القيمة فى هذا البحث ، وإلى حضرة
الأستاذ الشيخ محمد زكى إبراهيم خريج قسم التخصص والمترجم بمصلحة
المساحة لتفضله بمراجعة الكتاب .

هـ ١ أكتوبر سنة ١٩٣٣

على ابراهيم حسن

٣	تصدير الكتاب — بقلم الدكتور حسن ابراهيم حسن
٦	مقدمة الكتاب
٨	فهرس الرسالة
١٤	فهرس الصور والخرائط

فهرس الرسالة

الباب الأول

جوهر منذ ولادته الى أن ولى فتح مصر

١٧ الفصل الأول — جوهر قبل اتصاله بالمعز :

أصل جوهر — ولادته — بيته — الحسين بن جوهر

٢٣ الفصل الثانى — جوهر منذ اتصاله بالمعز الى أن ولى فتح مصر .

جوهر الصقلى — جوهر الكاتب — تقلد جوهر الوزارة فى

بلاد المغرب — فتوحه فى بلاد المغرب — منحه لقب القائد —

توليته إمرة الجيوش لفتح مصر .

الباب الثاني

استيلاء جوهر على مصر

صفحة

٢٧ الفصل الأول : حالة مصر قبيل الفتح الفاطمي

مصر في عهد الإخشيد : ثروة مصر في عهده — ضعف الخلافة العباسية . مصر في عهد كافور : أصل كافور — قيامه بالوصاية على أنوجور وأبي الحسن على ابني الإخشيد — ظهور الوحشة بينه وبين ولدي الإخشيد — استئثار كافور بالسلطة — حالة مصر في أواخر أيامه . حالة مصر بعد وفاته

٣٤ الفصل الثاني : فتح مصر

حملات الفاطميين الأولى على مصر — حملة المعز على مصر — صد كافور لها — المعز يعد العدة لفتح مصر — تولية جوهر القيادة — تقدير المعز لجوهر — توديع المعز له — مسير الجيوش الفاطمية بقيادته — وصول جوهر إلى برقة — استيلاؤه على الاسكندرية — مفاوضات الصلح بين جوهر والمصريين — اضطراب أهل القسطنطينية — بيان جوهر للمصريين — استيلاؤه على القسطنطينية — استئثار مفاوضات الصلح بينه وبين المصريين — بيان جوهر الثاني — تهنة المصريين جوهرًا بالفتح — دخول جوهر القسطنطينية — جوهر وتتمة الفتح

الباب الثالث

سياسة جوهر في مصر

صفحة

٤٨ الفصل الأول فتح سورية :

١ - حملة جعفر بن فلاح على سورية :

استيلاء جعفر على الرملة — استيلاؤه على طبرية - مقابلته وفد دمشق — استيلاء جعفر على دمشق — قيام الأهالي بالثورة - معاملة جند الفاطميين الأهالي — جعفر وزعماء الثورة في سورية

٢ - تهديد سلطان الفاطميين في سورية :

أولا — القرامطة : سبب الحرب بين الفاطميين والقرامطة . التحالف بين جعفر وأمير الرحبة الحمداني ضد القرامطة - نشوب القتال بين الحسن وجعفر - هزيمة جعفر . ثانياً — أفتكين : أصله - استنجد أهل دمشق به - دخوله دمشق اتحاده مع القرامطة لطرد الفاطميين - إسناد قيادة الجيوش الفاطمية في الشام إلى جوهر .

٥٧ الفصل الثاني : صد جوهر غارات القرامطة عن مصر

حملة القرامطة الأولى على مصر : مسير القرامطة الى الرملة — وصولهم إلى القلزم - وصولهم إلى الفرما - اعتراف مدينة تنيس بسلطانهم . القرامطة في عين شمس - تهديدهم القاهرة - استعداد

جوهر لقتالهم - رجوعهم الى القلزم - قضاء جوهر عليهم -
موقف الأخشيديين .

حملة القرامطة الثانية على مصر : كتاب المعز إلى الحسن زعيم
القرامطة - رد الحسن - استعداد المعز للقتال - القرامطة
وجلاؤهم عن مصر .

٦٣ الفصل الثالث : الدعوة الفاطمية في مصر

١ - قبل الفتح :

العوامل التي دعت الفاطميين الى اختيار مصر مقراً للدعوة
الشيعية بدلا من بلاد المغرب - الحملات الفاطمية وأثرها في
نشر المذهب الفاطمي في مصر - انتشار الدعوة الفاطمية في مصر
في عهد الأخشيديين - استقبال كافور دعاء الفاطميين .

ب - بعد الفتح

جوهر وإقامة الخطبة للمعز - الدعوة الفاطمية في المساجد : في جامع
عمرو - في جامع ابن طولون - في الجامع الأزهر - التعاليم
الفاطمية في القصر الفاطمي - داعي الدعوة .

٧٣ الفصل الرابع : النظام الإداري في مصر في ولاية جوهر

سياسة جوهر العامة في مصر : قصر مناصب الدولة على
المتشيعين - اقضاء جوهر السنين عن المناصب تدريجيا - جباية
الخراج - الوزارة - القضاء - الحسبة - موقف جوهر إزاء
سلوك المغاربة .

الباب الرابع

منشآت جوهر في مصر

صفحة

٨٣ الفصل الأول - تأسيس مدينة القاهرة :

العواصم الإسلامية في مصر قبل القاهرة : الفسطاط - العسكر
القطائع . سبب إنشاء القاهرة - تسميتها - موقعها - سورها -
ظاهرها - القصر المعزى - أبواب القصر - قصر العزيز - بين
القصرين - أبواب القاهرة : باب ذويلة - باب النصر - باب
الفتوح . حالة مصر العامة في عهد جوهر

٩٧ الفصل الثاني - بناء الجامع الأزهر :

المساجد الجامعة في مصر قبل الأزهر : جامع عمرو بن العاص -
جامع العسكر - جامع ابن طولون .
سبب بناء الجامع الأزهر - تسميته - وصف الجامع الأزهر :
مقصورة جوهر - مقصورة الأمير عبد الرحمن كتيخدا - أعمدة
المقصورتين - صحن الجامع الأزهر - محراب جوهر - محاريب
الجامع الأزهر - منبر الأزهر - تحويل الأزهر إلى جامعة في
عهد العزيز .

الباب الخامس

حياة جوهر في مصر بعد قدوم المعز إليها

صفحة

١٠٤ الفصل الأول - قدوم المعز إلى مصر :

خروج المعز من المنصورية - استخلافه بلكين على إفريقية -
وصوله إلى برقة - دخوله الاسكندرية - استقباله - خطبته -
وصول المعز إلى الجزيرة - استقبال جوهر له - وصوله إلى القاهرة -
دخوله القصر - استقباله الأشراف والقضاة والعلماء - هديته
جوهر وأبي جعفر مسلم المعز - صلاته في مصلى القاهرة - هدية
المعز لجوهر - صرف جوهر عن ولاية الأعمال العامة في مصر -
إسناد الأعمال إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن - سبب
صرف جوهر

١١١ الفصل الثاني : تثبيت سلطان الفاطميين في سورية :

خروج جوهر إلى سورية - احتلاله الرملة - ولاء أهل دمشق
لافتكين - نزول جوهر بظاهر دمشق - الحرب بينه وبين افتكين -
هزيمة افتكين - مسير القرامطة لمعاونة افتكين - مسير جوهر
إلى الرملة - تعريجه على عسقلان - محاصرة القرامطة وافتكين
لعسقلان - المفاوضات بين جوهر وافتكين بشأن الصلح -
مرور جوهر تحت سيف افتكين ورمح الحسن - عودة جوهر
جوهر إلى مصر - خروج العزيز مع جوهر إلى الشام - طلب

العزیز المهادنة من إفتکین - رفض إفتکین الحرب بین القرامطة
وإفتکین و بین العزیز - هزيمة الحسن القرمطی وفراره - فرار
إفتکین والقبض علیه - إفتکین فی مصر - عفو العزیز عن
إفتکین وأثر جوهر فی ذلك - إکرام العزیز لإفتکین - وفاة إفتکین.

١١٩ خاتمة القول فی جوهر

١٢٥ مصادر الرسالة

الصور والخرائط

مقابل صفحة

- | | |
|---|-----|
| (١) خريطة اتساع الدولة الفاطمية | ٢٧ |
| (٢) صورة جامع عمرو بن العاص : منظر عام لايوان الشرقى | ٦٩ |
| (٣) خريطة القاهرة فى عهد الفاطميين : | ٨٣ |
| (٤) صورة الجامع الأزهر : صحن الجامع وبه القبلة الوسطى | ٩٩ |
| (٥) صورة جامع ابن طولون : ايوان الجامع وصحنه . | ١٠١ |
| (٦) صورة الجامع الأزهر : صحن الجامع وبه القبلة الوسطى | ١٠٣ |

obeikandi.com

الباب الأول

جواهر منذ ولادته الى أن ولي فتح مصر

الفصل الاول

جواهر قبل اتصاله بالمعز

يحمل بنا قبل المضى في الكلام عن حياة جواهر ، الذى نضع له هذه الرسالة لاستقصاء أخباره وتتبع آثاره وفتوحه وسياسته وأخلاقه ، أن نأتى بكامة يسيرة عند موطنه الأصلي « صقلية » . فإن للبيئة التى ينشأ فيها الشخص ويتدرب تأثيراً كبيراً فى أعماله . وبدراستها يسهل الحكم على حياة الرجل مما يحيط به من المؤثرات .

وُلد جواهر بجزيرة صقلية ، إحدى جزر الدولة الرومانية ؛ فهو باعتبار مولده رومى الأصل ؛ (١) وكان العرب يطلقون على أهالى الدولة الرومانية (الشرقية والغربية) اسم الروم . وقد ظلت صقلية ، (٢) موطن جواهر الأصلي ، تحت حكم الرومان حتى

(١) ذكر المقرئى (الخطوط ج ١ ص ٣٧٧) أن جواهر «مملوك رومى رباه المعز لدين الله» . كذلك أطلق عليه ستانلى لين پول (The Story of Coiro p. 117) اسم «العبد الرومى»

(٢) صقلية : بثلاث كسرات وتشديد اللام ، والياء أيضاً مشددة . والبعض يقول بالسين . وأكثر أهل صقلية يفتحون الصاد واللام . وهى من جزائر البحر الأبيض المتوسط ، بينهما وبين افريقية مائة وأربعون ميلاً . وهى جزيرة خصيبة

(٢ — ٢)

فتنحها الأغالبة (١) سنة ٢١٢ هـ (سنة ٨٢٧ م) على يد أسد بن الفرات قاضى القيروان ، وذلك فى عهد المأمون . ويحدثنا ياقوت (٢) أن أسداً فتح هذه الجزيرة على رأس تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل . وكانت ولاية القضاة إمرة الجند مألوفة عند المسلمين ، فظالما قادوا الجيوش وفتحوا كثيراً من البلاد ، وخرجوا فى الغزوات ما بين شامية وصائفة إلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية ، التى كانت فى عدااء مستمر مع المسلمين بحكم الجوار . فقد ولى القاضى يحيى بن أكثم قيادة الجند فى عهد المأمون لقتال البيرنظيين .

وقد أسلم أكثر سكان جزيرة صقلية على أثر هذا الفتح ، وبنوا بها كثيراً من المساجد ودور العلم . وكان للرحالة من المسلمين معرفة تامة بجزيرة صقلية مهد جوهر . فقد ذكر لنا ياقوت أن أبا الحسين بن يحيى بن الفقيه وصفها فى كتابه « تاريخ صقلية » وصفاً دقيقاً مسهباً ، فتكلم عن جبالها وبراكينها ومضايقها ومعادنها وثمارها وفواكهها ، وما بها من الأبنية والحصون والآثار . كذلك وصفها ابن حوقل الذى رآها سنة ٣٦٢ هـ ، وهى السنة التى وصل فيها المعز لدين الله الفاطمى إلى القاهرة واتخذها حاضرة

كثيرة البلدان والقرى ، وبها نحو ثلاث وعشرين مدينة وثلاثة عشر حصناً . وبها جبل النار الذى يزعم الروم أن كثيراً من الحكماء الأولين كانوا يدخلون إلى الجزيرة لمشاهدة عجائبه واجتماع النار والثلج فيه ، وقيل إنه كان فى هذا الجبل معدن الذهب ، وقد سماه الروم جبل الذهب . وحاضرة هذه الجزيرة مدينة بلرم ، ومن أكبر مدنها الخالصة . (ياقوت معجم البلدان ج ٥ ص ٣٧٣ — ٣٧٦) .

(١) أسس هذه الدولة إبراهيم بن الأغلب الذى أقطعه هارون الرشيد شمال افريقية فى سنة ١٨٤ هـ (سنة ٨٠٠ م) ، فولياها هو وأولاده من بعده إلى سنة ٢٩٦ هـ (سنة ٩٠٩ م) .

Stanley Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties p. 36

(٢) معجم البلدان ج ٥ ص ٣٧٤

لدولته ، وكتب عنها كتاباً سماه « محاسن أهل صقلية » وذكر من بين مدنها الكبيرة بلرم والخاصة ، كما قال أن عدد ماشيته المسلمين فيها من المساجد يزيد على الثلاثمائة . ومن ذلك نقف على مدى انتشار الاسلام في هذه البلاد وتمكنه من نفوس أهلها . ووصف هذه الجزيرة أيضاً الشريف الإدريسي المتوفى سنة ٦٤٩ هـ (سنة ١٢٥١ م) ، والذي شاهد كثيراً من ممالك العالم المختلفة . (١) وقد أهدى لروجر الثانى ملك صقلية كرة أرضية من الفضة رسمت عليها البحار والقارات .

وقد صادفت اللغة العربية في تلك البلاد جواً صالحاً ، كما وجد الدين الإسلامى مرعى خصيباً بين أهل صقلية . فقد انتشرت هذه اللغة في تلك الجزيرة وأصبحت لغة التخاطب فيها ، واللغة الرسمية للبلاد . وترجمت في هذه الجزيرة أهم مؤلفات أرسطو وأرسطو إلى اللغة العربية ، كما انتشر الشعر العربى بين أهلها ، وبخاصة المعانيق السبع (٢) وغيرها من القصائد العربية . وكان لما أخذه رودجر النرماندى عن العرب من المثل العليا للفروسية أثر كبير في ارتفاع شأن أسرته . أضف إلى ذلك ما أخذته عنهم من النظام الإدارى واستعانت به بالموظفين المسلمين في إدارة شئون دولته (٣)

(١) كتاب نزهة المشتاق في ذكر الأُمصار والأقطار والبلدان (رومة سنة ١٥٩٢)

ذكر المقرئى (المخطوط ج ١ ص ٤١٥) أن جميع البلاد التى ذكرها الإدريسي كانت مكتوبة على ستور حريرية بالقصر الفاطمى فى القاهرة .

(٢) كان عند العرب فى الجاهلية أسواق للأدب يتناشد فيها الشعراء القصائد العصماء أمام المحكمين من شعراء العرب . فكانت القصائد التى يحكم لها بالسبق تكتب بماء الذهب وتعلق على جدران الكعبة تكريماً لأصحابها وإشادة بذكرهم بين قبائل العرب المختلفة . وقد بلغ مجموع هذه القصائد حتى ظهور الاسلام سبعمائة .

Encyclopaedia of Islam, Sicily, S. V.

(٣)

ويعتبر العصر الذى سادت فيه الثقافة العربية فى هذه الجزيرة هو العصر الذهبى لها ، ذلك العصر الذى بذت فيه صقلية جميع ممالك أوربا من حيث الحضارة والمدنية . وكان من أثر انتشار اللغة العربية أن أصبحت لغة النقوش التاريخية فى هذه البلاد ، حتى كان الملوك من النرماندين يجيدون التكلم بها . وقد أفسحت اللغات الأغريقية والعربية والفرنسية الطريق إلى اللهجة الإيطالية . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الفتح النرماندى قد عبر الطريق للهاجرين من إيطاليا ، وبخاصة للنرماندين (١) .

وكان من الطبيعى أن تؤثر هذه البيئة الإسلامية فى نشأة جوهر ، فيشب على الإسلام متمسكاً بأهدابه ، مثقفاً تثقيفاً عالياً بفضل انتشار اللغتين العربية واللاتينية وغيرهما من اللغات السائدة فى هذه البلاد ، ويأخذ بنصيب كبير من الحضارتين العربية والرومانية . وكان لتلك الثقافة أكبر الأثر فيما عرف به جوهر من حسن السياسة والمهارة الحربية . ولم تلبث هذه الحضارة أن انتشرت بين الفاطميين ؛ فقد كان الخليفة المعز مثقفاً يجيد عدة لغات : منها الأغريقية والصقلية ، كما كان ذاولع بالعلوم ودراية بالآداب ، معروفاً برجاحة العقل وحسن التدبير (٢) . ومن ثم اختار رجالات دولته من بين المغاربة وأهل صقلية ممن اشتهروا بالحزم والكفاية والثقافة العالية .

* *

لم يحفظ لنا التاريخ لسوء الحظ شيئاً ذا غناء عن بيت جوهر وعن أبيه وأمه وأخوته وغيرهم من ذوى قرباه ، ولا عن كيفية اتصاله بالمعز ، وإنما

(١) Encyclopaedia Britannica, Encyclopaedia of Islam Sicily, S. V.

(٢) Stanley Lane-Poole : The Story of Cairo, p. 116.

هى أخبار مبعثرة لا تمثل لنا حياة هذه الأسرة التى نشأ بها جوهر تمثيلاً صحيحاً واضحاً .

وليس لدينا من المصادر ما يسمح لنا بالوقوف على السنة التى ولد فيها جوهر بالضبط ، اللهم إلا ما ذكره ابن زولاق (١) من أنه سأل الشريف أبا جعفر مسلم عند ما عاد إلى القسطنطينية ، بعد مقابلته له ومفاوضته إياه بشأن الصلح سنة ٣٥٨ هـ ، عن سن جوهر فقال : « نيف وخمسون سنة » . وعلى ذلك يكون جوهر قد ولد بين سنتي ٣٠٥ هـ ، ٣٠٧ هـ . غير أن هذا يتعارض مع ما ذكره المقرئى (٢) من أن جوهر ا قد توفى سنة ٣٨١ هـ بعد أن نيف على الثمانين . ولو أخذنا بهذه الرواية لكانت ولادة جوهر بين سنتي ٢٩٨ هـ و ٣٠٠ هـ . ونحن نميل إلى ترجيح الرواية الثانية لأنها قد وردت على لسان جوهر نفسه . فقد ذكر المقرئى أن جوهر ا قال لابن عمار (٣) فى سنة ٣٨١ هـ ، وهى السنة التى مات فيها جوهر ، لقد « نيفت على الثمانين » . والنيف - على ما ذكره صاحب المصباح - هو من واحد إلى ثلاثة . بينما لم تعد الرواية الثانية أن تكون تقديراً تقريبياً لسن جوهر من أبى جعفر مسلم .

ولم يذكر لنا المؤرخون شيئاً عما إذا كان جوهر قد ولد مسلماً أو أسلم بعد ولادته . والذى يغلب على الظن أنه وُلد مسلماً . فقد دخل الإسلام جزيرة صقلية سنة ٢١٣ هـ ، وذلك قبل أن يتصل جوهر بالمعز بأكثر من قرن . أضف إلى ذلك أن أباه كان يدعى عبد الله ، وهو اسم من الأسماء الشائعة بين المسلمين . وليس بعيداً أن يكون عبد الله هذا قد بادر إلى الإسلام الذى كان منتشرًا فى هذه الجزيرة منذ زمن بعيد ، وأن جوهر ا قد شب على دين أبيه . أما أجداده فلم ينقل لنا التاريخ شيئاً عن إسلامهم ؛ وكل ما ذكره عن سلسلة

(١) المقرئى : اتعاظ الخفاص ٧١

(٢) الخطط ج ١ ص ٣٨٠

(٣) أحد قواد المغاربة

نسب جوهر أنه أبو الحسين جوهر بن عبدالله . ولعل سكوت المؤرخين عن استقصاء ذلك النسب يرجع إلى أنهم لم يعثروا على شيء في ذلك . فقد كان جوهر مولى من الموالى . وقلبا يهتدى المؤرخون إلى الوقوف على صحة نسب هؤلاء الموالى ، وذلك لعدم عناية الموالى أنفسهم بتدوين أنسابهم . أضف إلى ذلك أن هذا النسب كثيرا ما يكون عرضة للغموض والابهام . وكان لجوهر ولد يدعى الحسين ويكنى بأبي عبد الله . وكان ذا مواهب فذة ومقدرة حربية فائقة كما كان أبوه . وكان يلقب في حياة أبيه « بالقائد ابن القائد » . (١)

الفصل الثانی

جوهر منذ اتصاله بالمعز إلى أن ولى فتح مصر

شب جوهر فى حجر الدولة الفاطمية ببلاد المغرب بين موالى المعز .
ويحدثنا المقرئى (١) أن المعز قد اختص جوهرًا من بين مواليه وكنّاه بأبى
الحسين . وقد قرّبه الخليفة الفاطمى لما توسمه فيه من الإخلاص للدين
والمواهب الفذة والثقافة الواسعة التى أخذ منها بأوفى نصيب .

ويطلق المؤرخون على جوهر « جوهر الصقلية » نسبة إلى موطنه
الأصلى « صقلية » . ويظهر لنا أن كثيرين من أهل هذه الجزيرة قد انضموا
تحت لواء الفاطميين وحاربوا فى صفوفهم بعد أن تأسست دولتهم فى بلاد
المغرب سنة ٢٩٦ هـ ، بدليل ورود لفظ « الصقالبة » فى كثير من المصادر
التي يعتمد عليها فى تاريخ الفاطميين . وقد شاع إطلاق لفظ الصقالبة على
سكان جزيرة صقلية ، وهو خطأ واضح ، لأن الصقالبة من الجنس السلافى ،
ومنه الروس والصرب والبلغار وغيرهم من أهالى البلاد المحيطة بالبحر
الأسود . وبذلك كانت التسمية الصحيحة لأهل جزيرة صقلية هى
« الصقليين » لا « الصقالبة » .

ظل جوهر يتدرج فى سلك المناصب ببلاد المغرب حتى اتخذ المعز فى
سنة ٣٤١ هـ (٩٢٣ م) كاتباً له . ولقب منذ ذلك الحين « بجوهر الكاتب » .
ولابد أن يكون المعز قد خبر جوهرًا وعرف ما امتاز به من الصفات

والمزايا قبل أن يلى الخلافة بزمان طويل ، إذ يبعد كل البعد أن يطفر جوهر بهذه السرعة إلى هذا المنصب الخطير ، وأن يتخذ المعز كاتباً له سنة ٣٤١ هـ وهى السنة التى ولى فيها الخلافة . فقد كانت الكتابة احدى المناصب العالية التى كان الخلفاء لا يسندونها إلا لمن أنسوا فيهم الكفاءة والقدرة على معالجة الأمور ، كما كانت الخطوة الأولى إلى الوزارة إذا ما حاز صاحبها رضا الخليفة .

وكان جوهر عند حسن ظن الخليفة به ، فراه إلى منصب الوزارة سنة ٣٤٧ هـ . ولا غرو فقد كان جوهر كاتباً بليغاً ، كما كان عفا جهم الأدب فى كتابته . يتبين ذلك فى عهد الصلح الذى كتبه للمصريين ، ذلك العهد الذى سنأتى على ذكره فى الباب التالى . وقد كان لهذه الصفات أبعاد الأثر فى تهدئة خواطر المصريين وتأليف قلوبهم عقب الفتح الفاطمى

ويحدثنا ابن خلكان (١) أن المعز بعث جوهرأ (صفر سنة ٣٤٧ هـ) ، لفتح مابقى من بلاد المغرب ، على رأس جيش كثيف يضم كثيراً من رجالات المغاربة ، ومن بينهم زيرى بن مناد الصنهاجى الذى استخلف المعز ابنه بلكين على بلاد المغرب عند ما رحل إلى مصر فى سنة ٣٦٢ هـ . سار جوهر إلى تاهرت (٢) فاستولى عليها ، ثم استأنف السير إلى مدينة فاس فناجز أهلها

(١) ج ٢ ص ١٠٢

(٢) تاهرت (أو تيهرت) اسم لمدينتين متقابلتين استولى عليهما أبو عبد الله الشيعى سنة ٢٩٦ هـ ، بعد أن ملكهما بنو رستم زهاء مائة وثلاثين سنة . وكان بها أسواق عامرة وحمامات كثيرة . وكان ميمون بن عبد الوهاب بن رستم بن بهرام (وبهرام مولى عثمان بن عفان) صاحب تاهرت رأس الأباطية وأمامهم ، وكانوا يسمون عليه بالخلافة .

مدة ، ثم تركها لاستعصائها عليه . ثم يمم سجلماسة (١) ، وكان قد قام بها رجل تلقب بالشاكر بالله وخاطبه الناس بأمير المؤمنين . فلما علم بدنو جوهر من المدينة هرب منها ، فطارده جوهر حتى قبض عليه وأسره . ثم أمعن جوهر السير في بلاد المغرب الأقصى ، يفتتح مدنها مدينة تلو مدينة حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسي . (٢) وقد أراد أن يبرهن للمعز إلى أى حد وصلت جيوشه في فتوحها ، فأمر أن يصاد من سمك المحيط . ثم وضع هذا السمك في قلال الماء وبعثه إلى المعز « وأعلمه أنه قد استولى على مامر به من المدائن والأمم وسلك ما هنالك من البلاد فافتتحها » . (٣)

ولما لم يتمكن جوهر من الاستيلاء على بلاد المغرب كلها ، لاستقصاء فتح فاس عليه ، عاد إلى هذه المدينة وعالج فتحها من جديد . وقد تم له ما أراد ، ففتحها عنوة واستولى عليها ، وقبض على صاحبها وعلى صاحب سجلماسة ، ثم وضعهما في قفصين حملهما مع هدية إلى الخليفة المعز وهو في المهديّة .

وهكذا تمكن جوهر من توطيد الأمن في جميع أرجاء بلاد المغرب في أقل من سنة ، وإتمام الفتوحات التي بدأها أبو عبد الله الشيعي سنة ٢٩١ هـ (سنة ٨٩٦ م) ، فأخضع لسلطان المعز أهالي هذه البلاد ودانوا له بالطاعة والولاء . فلا عجب إذا عظم شأن جوهر عند المعز ، فاختره لقيادة الحملة التي أرسلها لفتح مصر ، ولقبه « بالقائد » .

(١) سجلماسة : مدينة بالمغرب الأقصى ، يجري فيها نهران أصلهما واحد ، فاذا قربا من المدينة تشعبا إلى نهرين فيساكنها شرقا وغربا . وتقع في سهل أرض سبخة حول أرباض كثيرة ، وتبعد عن القيروان بستة وأربعين فرسخا . وكان بناؤها سنة ١٤٠ هـ وفي سنة ١٦٠ هـ اتخذها بنو مدرار حاضرة ملكهم (البكري ص ١٤٨ - ١٤٩)

(٢) المقرئ : المخطوط ج ١ ص ٣٥٢

(٣) المقرئ : المخطوط ج ١ ص ٣٧٨ ،

وقد ذكر ابن خلكان (١) أن جوهرأمرض وهو في بلاد المغرب مرضاً شديداً أشرف معه على الموت . فحزن المعز وعاده بنفسه في بيته ، وهو شرف لا يناله إلا المقربون . وكان نفس المعز كانت تحدثه بأن مصر لن تفتح إلا على يد جوهر . فلما عاد من زيارته قال : « هذا لا يموت ؛ وستفتح مصر على يديه » . وقد تحققت نبوءة المعز ، فشفي جوهر من مرضه . وسرعان ما أعدت معدات الحملة وخرج المعز لوداعه ، وهو ما سنفصله بعد .



(١) ج ١ ص ١١٩ .

البَابُ الثَّانِي

استيلاء جوهر على مصر

الفصل الاول

حالة مصر قبيل الفتح الفاطمي

كانت مصر قبيل الفتح الفاطمي تحت حكم الأخشيديين منذ سنة ٣٢٣ هـ ، وظلت على ذلك إلى سنة ٣٥٨ هـ حيث فتحها جوهر قائد جيوش المعز لدين الله .

وقد أسس محمد بن طنجج الأخشيد هذه الأسرة على أثر ولاية هذه البلاد للمرة الثانية سنة ٣٢٣ هـ . وكانت مصر في عهده في طمأنينة وهدوء . وكان الأمن مستتباً ، والرخاء شاملاً ، والبلاد لا تزال قوية بجندھا الذين كانت تدفع لهم رواتبهم بانتظام . أضف إلى ذلك قوة العباسيين الذين كانت مصر تابعة لهم تبعية اسمية . لذلك استطاعت مصر أن تقف في وجه الفاطميين الذين جعلوا الاستيلاء عليها نصب أعينهم منذ خلافة عبيد الله المهدي . وقد زاد كل ذلك في قوة الأخشيد حتى تمكن من صد الجيوش الفاطمية التي أغارت على هذه البلاد في عهد القائم بن المهدي سنة ٣٢٤ هـ . وقد كانت الصلة بين الأخشيد والخليفة العباسي على خير ما يكون من الصفاء وحسن التفاهم . (١) وظلت أواصر هذه الصلة قوية متينة الى أن جاء

ابن رائق لصرف الاخشيد عن مصر بأمر الخليفة . لهذا لا نعجب إذا ثارت
ثائرة الاخشيد ، فكتب إلى نائبه في بغداد لاستطلاع رأى الخليفة الذى لم
يحفل به ولم يرد عليه بشئ . وكان من أثر ذلك أن أمر الاخشيد بإلغاء الخطبة
للخليفة العباسى وإحلال اسم الخليفة القائم الفاطمى محله . وهذا العمل
— كما سنرى — يعتبر خطوة تمهيدية للاعتراف بسلطان الفاطميين .

على أن الدولة العباسية لم تلبث أن ضعفت فى أواخر أيام الاخشيد الى
حد كبير . وذلك على أثر تنازع السلطة فى بغداد بين توزون والبريدى اللذين
كانا من قواد الأتراك . ومن ثم لم يجد الخليفة بداً من الاستنجاد بالـ اخشيد ،
أقوى ولاته فى ذلك العصر . وسار الخليفة إلى الشام ، فلقبه الاخشيد فى
مدينة الرقة (١) وعرض عليه البقاء معه فى الشام أو الذهاب إلى مصر .
ودارت المفاوضات بين الاخشيد وتوزون الذى تعهد بحماية الخليفة ؛ فعاد
الخليفة الى بغداد ، ورجع الاخشيد إلى مصر . أما توزون فإنه لم يرع لعهد
حرمة ؛ فقد سمل عين الخليفة وحبس ثم قتله (٢) . وجاء بعد ذلك بنوبويه
لنصرة الخليفة العباسى الذى لم يلبث أن أصبح العوبة فى أيديهم .

مات الاخشيد فى فلسطين فى شهر ذى القعدة سنة ٣٣٤ هـ ودفن فى
بيت المقدس ؛ خلفه ابنه الاكبر أبو القاسم أنوجور (٣) وهو فى الخامسة
عشرة من عمره . وقد قام بتدبير أمره أبوالمسك كافور .

كان كافور عبداً خصباً مملوكاً لأحد أهالى مصر ، فاشتراه منه محمد بن
طنج مؤسس الدولة الاخشيدية فيما بعد ؛ وكان إذ ذاك من كبار القواد .

(١) بلدة واقعة على الطريق بين العراق والشام .

(٢) أبو المحاسن : ج ٢ ص ٣٠٧

(٣) أنجور أو أنوجور معناها بالعربية محمود على ما ذكره ابن خاسكان (ج ١ ص

٥٤٥) والسيوطى (ج ٢ ص ٣٧٣)

وقد ذكر السيوطي (١) أن الأخشيد اشترى كافورا بثمانية عشر ديناراً ؛
وذكر المقرئ (٢) أنه أرسل بهدية لمحمد بن طنج ، فتوسم فيه الذكاء وأبقاه
عنده ورد الهدية إلى صاحبها .

ولما آلت ولاية مصر إلى الأخشيد ترقى كافور في بلاطه ، فاختصه الأخشيد
من بين عبيده ومنحه ثقته حتى جعله أتابك (٣) ولديه أبي القاسم أنوجور وأبي
الحسن عليّ . ولا غرو فقد كان الأخشيد يرى في كافور النجابة والهمة ،
حتى ذكر بعض المؤرخين أنه قال : والله لا ورث دولة ابن طنج إلا هذا العبد .
ولما توفي الأخشيد وخلفه ابنه أبو القاسم أنوجور قبض كافور على زمام
الأمر في كافة البلاد الخاضعة لحكم الأخشيديين : وهي مصر والشام
والحجاز . وقد استهل كافور عهده بالقضاء على الثورة التي قام بها المصريون
في وجهه . أضف إلى ذلك ما أصابه من الفوز في طرد أبي الحسن عليّ الملقب
بسيف الدولة الحمداني من دمشق ، والخيولة بينه وبين المسير إلى مصر . وكان
من أثر هذا الانتصار الذي دلت عليه هذه الغنائم التي استولى عليها المصريون في
هذه الحرب ، أن عظم شأن كافور ، فخطبه عليه القوم « بالاستاذ » ، ودُعي
له على المنابر في مصر والشام والحجاز (٤) باسم أبي المسك (٥) كافور ، تلك
التسمية التي كناه بها الخليفة العباسي . وقد اكتسب محبة القواد وكبار رجال

(١) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (ج ٢ ص ٣٧٣) ، وابن خلكان

(ج ١ ص ٤٣١) ، وأبو المحاسن (ج ٢ ص ٣١٥)

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٦

(٣) أتا معناه بالتركية الأب وبك معناه الأمير ، أي أبو الأمير أو مربي الأمير

(٤) ذكر المقرئ (الخطط : ج ٢ ص ٢٦) أن أهالي الفسطاط والرملة وطبرية

لم يدعوا للأخشيد قبل سنة ٣٤٠ هـ .

(٥) أطاقت هذه الكنية عليه من قبيل التلميح والمشاكلة ؛ لأن المسك سواد

الدولة بما أغدقه عليهم من العطايا والهبات ، كما انبسطت يده في كافة شؤون البلاد . (١)

وكان من أثر ازدياد نفوذ كافور أن ظهرت الوحشة بينه وبين انوجور ، وعمل كل منهما على الإيقاع بالآخر . وانقسم الجند فريقين : الاخشيديّة والكافورية . ومات كافور في ذى القعدة سنة ٣٤٩ هـ ، ولم يتجاوز التاسعة والعشرين ، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن كافورا قد دبر أمر وفاته بالسّم . وقد أقام كافور أخاه أبا الحسن على بن الاخشيدي وهو في الثالثة والعشرين . ولم يكن لهذا الأمير الجديد مع كافور شيء . فقد استبد بالأمور دونه وعين له - كما عين لأخيه من قبله - أربعمائة ألف دينار في كل سنة (٢) ، ومنع الناس من الدخول إليه . ويحدثنا المقرئ أن أبا الحسن اعتل بعلّة أخيه ، وأنه مات كمدّاً لحرمانه من سلطته الشرعية (المحرم سنة ٣٥٥ هـ) . وقد حال كافور بعد وفاة أبي الحسن دون تعيين ابنه أحمد ، بحجة أنه غير صالح للحكم لصغر سنه ؛ وبقيت مصر بغير أمير عدة أيام . وفي المحرم من سنة ٣٥٥ هـ أخرج كافور كتاباً من الخليفة المطيع العباسي بتقليده ولاية مصر والبلاد التي تحت سلطانها . فلم يغير لقبه الأستاذ ، ودُعي له بعد الخليفة على منابر مصر والشام والحجاز ، وكان يدعى له قبل ولايته بعد الخليفة والوالى (٣) .

ولم يكد كافور يستولى على ولاية مصر سنة ٣٥٥ هـ حتى أرسل المعز الفاطمي جيشاً لغزو هذه البلاد . فلما وصلت الجنود الفاطمية إلى الواحات ،

اللون ، وكان كافور كذلك . وكانت الدعاية في إطلاق لفظ كافور عليه ، لأنّ الكافور أبيض وكان هو أسود اللون .

(١) Stanley Lane - Poole : The Story of Cairo p. 101 .

(٢) أبو المحاسن : ج ٢ ص ٣١٥

(٣) المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٢٦ - ٢٧

جهز كافور جيشاً طرده وقتل منهم عدداً كبيراً . على أن كافوراً قد أحسن استقبال الدعاة الفاطميين الذين وفدوا عليه في بلاطه من قبل المعز يدعونه إلى طاعته ، حتى كان من أثر ذلك أن مال إلى المذهب الفاطمي الكثيرون من الكتاب والجنود الأخشيديّة والكافورية .

من ذلك نرى أن فكرة تحويل السلطة من العباسيين إلى الفاطميين كانت قد اختمرت في نفوس المصريين . ولا شك في أن الحالة السيئة التي سادت هذه البلاد في السنين الأخيرة من حكم كافور قد ساعدت على زوال سلطان الأخشيديين عن هذه البلاد . فقد اتّاب مصر البؤس والغلاء بدرجة لم ترها من قبل . وكان أشدّ تلك المحن أثراً انخفاض النيل الذي بدأ في سنة ٣٥١ هـ ، وماتبعه من انتشار القحط وتفشى الوباء . فاشتد الغلاء وندر القمح ، وفشا الموت بحالة عجز منها الناس عن تكفين الموتى وعن مواراتهم ، حتى قيل إنه كان يلقي بجثث الموتى في النيل لكثرتها (١) . وقد ذكر ابن خلكان أن عدد الموتى بلغ ٦٠٠٠٠٠ . يضاف إلى ذلك عجز كافور عن صد القرامطة الذين أغاروا على الشام سنة ٣٥٢ هـ (سنة ٩٦٣ م) ونهبوا حجاج مصر في طريقهم إلى مكة (سنة ٣٥٥ هـ) . وعدم استطاعته الدفاع عن مصر التي أغار عليها النوبيون حتى وصل ملكهم إلى انخيم ، وما كان من اضطراب الحكومة وعجز كافور عن دفع رواتب حرسه وغلمانه (٢) فتكروا له وثاروا عليه (٣) .

توفي كافور في ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) وهو في الستين من عمره ، بعد أن تولى أمر مصر والشام والحجاز زهاء إحدى وعشرين سنة ، ودفن في دمشق (٤) . وقد ترك مصر في حالة يرثى لها من الفوضى والاضطراب .

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٧

(٢) ذكر المقرئى أن عدد هؤلاء الغلمان بلغ ألفاً وسبعمائة

(٣) G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte P. 31

(٤) Stanley Lane-Poole : The story of Cairo p. 103.

وكان المذهب الفاطمي في هذه البلاد قد بدأ ينمو ويطرد بين عدد كبير من المصريين . كل ذلك قد مهد الطريق أمام جوهر لفتح مصر وتحويلها من سلطان الأخشيديين إلى سلطان الفاطميين .

وكانت الدولة العباسية في ذلك الوقت قد بلغت درجة كبيرة من الضعف والانحلال . فقد سادها الاضطراب والفوضى ، وانتقصت أطرافها ، واقتطعت منها دويلاتها ، وثار عليها ولايتها ، وكثرت الاغارة عليها من أعدائها ؛ وغدا الخليفة العباسي أشبه شيء بالعوبة في أيدي بني بويه (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ ، ٩٤٥ - ١٠٥٥ م) ، وكانوا من الشيعة الغالين الذين استنجد بهم الخليفة لمعاونته وتخليصه من ظلم الأمراء . ولا غرو فإن سلطة الخليفة العباسي قد اضمحلت في ذلك الوقت ولم تعد تمثل إلا في الخطبة والسكة ، وذلك لاحتفاظ الأمراء بسلطتهم السياسية لدى الأهاليين الذين كانوا يقدسون شخص الخليفة ويولونه احترامهم وتبجيلهم . وهذا ما حدا بسلاطين بني بويه والسلاجقة إلى إظهار الخلفاء أمام الناس بمظهر القوة والقداسة الدينية وأن نفوذهم مستمد من الخليفة . (١)

بذلك لم يعد للخليفة من أمر تعيين الولاة شيء . فلما مات كافور اجتمع رجال البلاط في مصر وولوا أبا الفوارس أحمد حفيد الأخشيد عرش مصر ، وكان في الحادية عشرة من العمر . (٢) واتفق أن جاء إلى مصر أبو محمد الحسن بن عبيد الله أخى الأخشيد فارا من وجه القرامطة ، فأمره المصريون على الجيش . فاستبد بالامر وقبض على الوزير جعفر بن الفرات واستولى على أمواله ثم عاد إلى الشام . (٣) وقد ظلت هذه البلاد بعد رحيل الحسن

Gibbon : Decline and Fall the Roman Empire. (١)

VI. p. p. 54—55

(٢) ابن خلكان : ج ١ ص ٤٥٧

(٣) ابن خلكان : ج ٢ ص ٥٥ و ٥٦ Stanley Lane-Poole :

History of Egypt in the Middle Ages p. 89—90

ابن عبيد الله إلى الشام سنة ٣٥٨ هـ ، نحواً من خمسة أشهر تحت إدارة ابن
الفرات ، وصلت في أثناءها إلى حالة من الفوضى عجز معها هذا الوزير عن
إقرار الأمن في نصابه وتخفيف ما حل بالآهالي من المصائب والويلات . (١)
من هذا كله نرى أن حالة الضعف والبهس التي وصلت إليها مصر ،
وعجز العباسيين عن إرسال الجيوش لصد الأعداء عنها قد مهدّ السبيل
أمام المعز الفاطمي لفتح مصر ، ذلك الأمر الذي تمّ على يد جوهر القائد ،
وهو ما سنبينه في الفصل التالي .

(١) Stanley Lane-Poole : The Story of Cairo, p. 117.

(٢ - ٣ - ج ١)

الفصل الثاني

فتح مصر

عنى الفاطميون عناية خاصة بغزو مصر ، لأن ذلك يُزيد في رقعة أملاكهم ، ولأن استيلائهم على هذه البلاد معناه امتداد نفوذهم على البلاد التي كانت خاضعة لسلطان الأخشيديين وهي الشام والحجاز . ولا غرو فان موقع مصر الجغرافى بين الشرق والغرب ، ووفرة ثروتها قد ساعدا على تحقيق أغراض الفاطميين من بث عقائد مذهبهم ، ونشر سلطانهم على البلاد الإسلامية في الشرق . لهذا لا نعجب اذا رأينا الخلفاء الفاطميين منذ خلافة المهدي يدأبون على امتلاك هذه البلاد فيرسلون الحملات البرية والبحرية لفتحها . فقد أرسل عبيد الله المهدي (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ) أول الخلفاء الفاطميين ثلاث حملات لغزو مصر : الأولى في سنة ٣٠١ هـ ، والثانية في سنة ٣٠٧ هـ ، ولم تنته إلا في سنة ٣٠٩ هـ في حين ابتدأت الحملة الثالثة في سنة ٣٢١ هـ واستمرت حتى عهد القائم بن المهدي سنة ٣٢٤ هـ . وقد فشلت هذه الحملات الثلاث في الاستيلاء على مصر وضمها إلى سلطان الفاطميين ، لأن مصر كانت في ذلك الوقت من القوة بحيث استطاعت أن ترد عنها غارات الأعداء وقد انقطعت حملات الفاطميين على مصر في المدة الباقية من خلافة القائم (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) وطوال عهد المنصور (٣٢٤ - ٣٣٤ هـ) . لأن العباسيين كانوا لا يزالون من القوة بحيث كان في استطاعتهم الدفاع عن مصر ورد الفاطميين عنها ، كما أن الثورات التي قام بها الخوارج في بلاد المغرب قد حالت دون تحقيق الغرض الذي كان يرمى اليه الفاطميون وهو فتح مصر . وأعظم هذه الثورات خطراً وأعظمها أثراً ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد ،

الذى قام بفتنة اشتد وقعها على الدولة الفاطمية فأفقدتها زهرة رجالها وجعلت بيت مالها خلواً من الصفراء والبيضاء .

وقد ظلت الحال على ذلك حتى جاء المعز رابع الخلفاء الفاطميين (٣٤١ هـ - ٣٦٥ هـ و ٩٥٢ - و ٩٧٥ م) فأرسل جيشاً لغزو هذه البلاد ؛ فوصل إلى الواحات . ولكن كافورا الإخشيدى صدّه وحال دون تقدمه .

على أن ذلك لم يصرف المعز عن تنفيذ ما عزم عليه من فتح هذه البلاد . وقد ساعده على ذلك استتباب الأمن في كافة أرجاء بلاد المغرب بعد إخماد ثورة أبي يزيد ، ثم قيام الاضطرابات وانتشار الفوضى في مصر على أثر وفاة كافور ، وضعف الخلافة العباسية وانشغالها بدفع البيزنطيين عن بلادها ؛ أضف إلى ذلك عطف المتشيعين بمصر على الدعوة الفاطمية حتى راسلوا المعز يطلبون إليه إرسال جيش لغزو هذه البلاد .

وقد لعب يعقوب بن كلث (١) دوراً هاماً في توجيه نظر المعز إلى حالة الضعف التي سادت مصر على أثر وفاة كافور .

كان الاستعداد لفتح مصر قائماً على قدم وساق ببلاد المغرب منذ سنة

(١) كان يعقوب يهودياً ، ولد في بغداد وصحب أباه وهو في صباه إلى الشام . ثم جاء إلى مصر سنة ٣٣٤ هـ ، واتصل بكافور بعد أن أصبحت السلطة في يده في عهد أنوجور وأبي الحسن عليّ ابن الإخشيد . فأحله كافور من نفسه محل العطف والرعاية لما آتته فيه من الهمة والنشاط والأمانة ، فعينه في ديوانه الخاص . ولم تزل حظوته تزداد عنده حتى جعله على خزائن الدولة . وقد أسلم في شهر شعبان سنة ٣٥٦ هـ فزادت حظوته عند كافور واستثار بذلك حسد الوزير جعفر بن الفرات ، فحبسه ابن الفرات بعد وفاة كافور ، ولم يطلقه إلا بعد أن تدخل بعض رجالات الدولة في الأمر وبعد أن بذل له ابن كلث الأموال . على أن ابن كلث لم يأمن على نفسه البقاء مع هذا الوزير . فسار خفية إلى بلاد المغرب حيث اتصل بالمعز ودله على وجوه ضعف مصر وحثه على النهوض بغزوها وضمها إلى أملاكه . وقد ظل ابن كلث في بلاد المغرب حتى عاد إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ مع المعز .

٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) . فقد أمر المعز بإنشاء الطرق وحفر الآبار في طريق مصر ، وأقام المنازل على رأس كل مرحلة ، وجمع الأموال للقيام بنفقات هذه الحرب .

ولا غرو فقد كان المعز شديد الاهتمام بفتح هذه البلاد ومد نفوذه إلى الشرق . فلم يأل جهداً في إعداد جيش كثيف وتزويده العدد ، حتى قيل ان عدد هذا الجيش كان يزيد على مائة ألف مقاتل من شجعان كتامة (من قبائل البربر) الذين أعادق عليهم المعز الأرزاق والعطايا حتى بلغت هذه الأموال - على ماذهب إليه المقرئى - أربعة وعشرين مليون دينار .

ويتبين مبلغ اهتمام الفاطميين بفتح مصر وبسط نفوذهم على سورية وبلاد الحجاز من الخطبة التي ألقاها المعز على شيوخ كتامة قبل مسير هذه الحملة إلى مصر وفيها يقول : « ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم . واعلموا أنكم إذا لزمتم ما أمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم . » (١)

وقد رأى المعز في جوهر الرجل الذى يعتمد عليه في القيام بأعباء هذه الحملة . ولا غرو فقد كان جوهر من الرجال الأفذاذ الذين برهنوا على شجاعتهم وكفايتهم ومقدرتهم الحرية والإدارية . فقد دانت جميع بلاد المغرب من أقصاها إلى أقصاها للمعز ، بفضل ماأظهره جوهر من المهارة الحرية . وكان لجوهر أثر يذكّر في نشر هذا السلطان . فلما آن أوان فتح مصر جعله المعز على رأس الجيوش التي أعدها لغزوها . وما يدل على مبلغ ثقة المعز به قوله حين خرج إلى مدينة رقادة (٢) لتوديع الجيوش الفاطمية

(١) المقرئى : أعاظ الخنافس ٦٠ - ٦١

(٢) رقادة : تبعد عن القيروان بأربعة أميال . وقد وصفها أبو عبيد الله البكرى في كتابه : « المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب » (ص ٢٧) فقال إنه يكثر بها البساتين وإنه ليس بإفريقية (بلاد تونس الحالية) أعدل هواء ولا أطيب تربة منها . وقيل ان أحد أولاد الأغلب قد أصابه الأرق فأشار عليه طبيبه بالخروج إلى

بقيادة جوهر « والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر . وليدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب ، ولينزلن في خرابات ابن طولون ، ويبني مدينة تقهر الدنيا » . ونقف من عبارة المعز على ثلاثة أمور :

الأول - غلو المعز في مدح قائده ، حتى كان يرى فيه أنه يستطيع فتح مصر وحده مع استعصائها على من سبقه من قواد الفاطميين قبله ومعهم الجيوش الكشيفة . وقد كان ثقة المعز بجوهر الأثر الكبير في نفسه مما جعله يتفانى في القتال ليكون عند ظن الخليفة به .

الثاني - وقوف المعز وقوفاً تاماً على أحوال مصر وعجزها عن صد الجيوش الفاطمية .

الثالث - أن المعز كان يرمى إلى اتخاذ حاضرة جديدة للفاطميين في موضع خرائب القطائع التي أسسها أحمد بن طولون أو قريباً منها لينشر منها نفوذه الديني والسياسي على بلاد الشرق . أضف إلى ذلك أن تسمية هذه الحاضرة بهذا الاسم « القاهرة » كان في نفس المعز قبل تأسيسها على يد جوهر ، مما يمكن أن يدحض ما ذهب إليه المؤرخون من رصد نجم المدينة وظهور « القاهرة » الذي اشتق منه اسم هذه الحاضرة . ولم تقتصر ثقة المعز بجوهر عند هذا الحد . فقد ذكر لنا ابن خلكان (١) أن الخليفة الفاطمي أمر أولاده

موضع رقادة . فنام فيه نوماً هادئاً . فسمى هذا الموضع من ذلك الوقت « رقادة » . واتخذها إبراهيم بن محمد بن زيادة الله الثاني (٢٦١-٢٨٩ هـ ، ٨٧٢-٩٠٢ م) . ومن ثم أخذت في العمران وكثرت فيها المساجد والقصور والحمامات .

ولم تزل مدينة رقادة مقر ملك بني الأغلِب إلى أن هرب منها زيادة الله فاراً من وجه أبي عبد الشيعي . فسكنها عبيد الله المهدي إلى أن اتخذ مدينة المهديّة حاضرة لملكه وانتقل إليها سنة ٣٠٨ هـ ، فأخذت رقادة في الخراب شيئاً فشيئاً حتى أصبحت أثراً بعد عين .

ورجالاات دولته بالترجل بين يدي جوهر عند ذهابهم لوداعه حين خروجه على رأس الجيوش الفاطمية لفتح مصر ، كما أمر المعز صاحب برقة بالترجل لجوهر عند لقاءه وتقبيل يده . وقد كبر ذلك على الوالى وبذل مائة ألف دينار على أن يُعفى من ذلك ، واسكنه لم يظفر بشيء . وبعد أن قُبِلَ جوهر يد الخليفة وحافر فرسه أُذِنَ له بالمسير . ولما عاد إلى قصره بعث إلى جوهر كل ما كان عليه من لباس خارجي عدا خاتمه .

خرج جوهر من القيروان (١) في الرابع عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٣٥٨ هـ (فبراير سنة ٩٦٩ م) ، وكان معه ألف ومائتا صندوق من الأموال على الجمال ، وجند يربو عدده على مائة ألف (٢) ، وخيل يزيد عددها على عدد الجند بكثير . ويحدثنا ابن زولاق (٣) أن أبا جعفر مسلم العلوى الذى تم الصلح بين المصريين والفاطميين على يده ، سئل عند رجوعه من تروجه عن مقدار عسكر جوهر فقال : مثل جمع عرفات كثرة وعُدَّة . وقد وصف ابن هانيء الأندلسى شاعر المعز هذا الجيش فى قصيدة طويلة قال فى مطلعها : رأيتُ بعينى فوق ما كنتُ أسمع وقد رأتنى يومٌ من الحشر أروعُ غداةَ كأن الأفق قد سُدَّ بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع (٤) وصل جوهر إلى برقة ، فأدى له صاحبها التحية على النحو الذى أمره به المعز . ثم استأنف جوهر المسير إلى الاسكندرية ، ففتحت له أبوابها من غير مقاومة ، فدخلها ومنع جنده من التعرض للأهلين . (٥)

(١) القيروان أكبر مدائن بلاد المغرب ، وتقع على بعد أربعة أميال من مدينة رقادة . وتشتهر بمساجدها وحدائقها الغناء ومبانيها الفخمة (البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٢ - ٢٧)

(٢) ابن خلكان : ج ١ ص ١١٩ ، G. Migeon : Art Mussulman, tome I. p. 41

(٣) المقرئى : اتعاظ الخنثا ص ٧١

(٤) ديوان ابن هانيء الأندلسى ص ١٠٦ - ١١٢

(٥) يحيى بن سعيد ص ١٣٢

من هذا نرى أن جوهرًا كان ذا رأى صائب وسياسة حكيمة ، تألف بها قلوب المصريين . فقد حال دون ما عساه ينجم من الشغب وأعمال السلب والنهب التي يرتكبها الجنود الفاتحون ، ويرجع الفضل في ذلك إلى إغداقه العطايا والأرزاق على جنوده مما لم يترك في نفس جندي منهم حاجة . وهذا يفسر مبلغ السهولة التي تم بها فتح سائر البلاد المصرية .

وقد اضطرب أهل الفسطاط حين علموا باستيلاء جوهر على الاسكندرية . فعقد الوزير جعفر بن الفرات مجلساً من كبار رجال الدولة للنظر في الحالة التي وصلت إليها البلاد ، فأجمعوا رأيهم على طلب الصلح ، وندبوا الوزير ابن الفرات للتفاوض مع جوهر في شروط الصلح وطلب الأمان على أرواحهم وأملاكهم . فأجاب الوزير عنه أبا جعفر مسلم ، وهو من الأشراف العلويين ومن ذوى المسكنة عند المصريين . فقبل أبو جعفر القيام بهذه المهمة واستصحب معه جماعة من ذوى الرأى والنفوذ في البلاد . (١)

وكان إسناد رئاسة هذا الوفد إلى أبي جعفر من الأمور التي دلت على حكمة ابن الفرات وبُعد نظره . فقد كان ندب رسول من العلويين للقيام بهذه المهمة سبباً في إجابة مطالب المصريين . وقد تجلّى ذلك في هذه الوثيقة التي اشتملت على شروط الصلح . (٢) وقد توجه هذا الوفد في يوم الاثنين ١٨ رجب سنة ٣٥٨ هـ وشيعه جمع كبير من الأهالى .

وقد تلاقى أعضاء هذا الوفد مع جوهر في مدينة تروجه (٣) ، فقبل جوهر ما عرضوه عليه .

وبذلك تم عقد الصلح بين المصريين والفاطميين ، ذلك الصلح الذى أودعه جوهر في هذه الوثيقة التاريخية التى نقلها عن المقرئ (٤) فيما يلى :

(١) الكندى - ص ٥٨٤ ، يحيى بن سعيد ص ١٣٢

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٠٦

(٣) بلدة قريبة من الاسكندرية

(٤) الأعاط الخفاص ٦٧ - ٧٠

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من جوهر الكتاب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه لجماعة أهل مصر الساكنين بها (من أهلها) ومن غيرهم أنه ورد من سألتهموه الترسل والاجتماع معي وهم أبو جعفر مسلم الشريف أطال الله بقاءه وأبو اسماعيل الرسي أيده الله وأبو الطيب الهاشمي أيده الله وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزه الله والقاضي أعزه الله ، وذكروا عنكم أنكم التستم كتابا يشتمل على أمانكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم ، فعرفتهم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وحسن نظره لكم . فلتحمدوا الله على ما أولاكم وتشكروه على ما أحاطكم وتدابروا فيما يلزمكم وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم العائدة بالسعادة عليكم وبالسلامة لكم ؛ وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن إخراج العساكر المنصورة والجيوش المظفرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم إذ قد تخطفتكم الأيدي واستطال عليكم المستذل والممتعة نفسه بالاقتدار على بلدكم في هذه السنة والتغلب عليه وأسر من فيه والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان المشرق وتأكد عزمه واشتد كلبه . فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه بإخراج العساكر المنصورة وبإفاد الجيوش المظفرة دونكم ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين عمهم الخزي وشملهم المذلة واكتنفهم المصائب وتتابعت الرزايا واتصل عندهم الخوف وكثرت استغاثتهم وعظم ضجيجهم وعلا صراخهم ، فلم يغثهم إلا من أرمضه أمرهم ومضه حالهم وابكى عينيه ما نالهم وأسهرها ما حل بهم وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه .

فرجا بفضل الله عليه وإحسانه لديه وما عودده وأرجاه عليه استنقاذ من أصبح منهم في ذل مقيم وعذاب أليم وأن يؤمن من استولى عليه المهمل ويفرخ روع من لم يزل في خوف ووجل وأثر إقامة الحجج الذي تعطل وأهمل العباد

فروضه وحقوقه لخوف المستولى عليهم . وإذا لا يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم ، وإذا قد أوقع بهم مرة بعد أخرى فسفكت دماؤهم وابتزت أموالهم مع اعتماد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات وقطع عبث العابثين فيها ليطلق الناس آمنين ويسيروا مطمئنين ويتحفوا بالأطعمة والأقوات ، إذا كان قد انتهى إليه صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها لخوف مارتها إذا لازجر للمعتدين ولا دافع للظالمين . ثم تجويد السكة وصرفها إلى العيار الذي عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة وقطع الغش منها ، إذا كانت هذه الثلاث خصال هي التي لا يتسع لمن ينظر في أمور المسلمين إلا إصلاحها واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها وما أوعز به مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى عبده من نشر العدل وبسط الحق وحسم الظلم وقطع العدوان ونفي الأذى ورفع الحزن والقيام في الحق وإعانة المظلوم مع الشفقة والإحسان وجميل النظر وكرم الصحبة ولطف العشرة وافتقار الأحوال وحياطة أهل البلد في ليلهم ونهارهم وحين تصرفهم في ابتغاء معاشهم حتى لا تجرى أمورهم إلا على ما أمّر شعئهم وأقام أودهم وأصلح بالهم وجمع قلوبهم وألف كلمتهم على طاعة وليه مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وما أمره به مولاه من إسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضى صلوات الله عليه بإثباتها عليهم ، وأن أجريكم في المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم واضع ما كان يؤخذ من بركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال . وأن أتقدم في رمّ مساجدكم وتزيينها بالفرش والإيقاد وأن أعطي مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم وأدرها عليهم ولا أقطعها عنهم ولا أدفعها إلا من بيت المال لا بأحواله على من يقبض منهم وغير ما ذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه مما ضمنه كتابه هذا من ترسل عنكم أيدهم الله وأصحابكم أجمعين بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه من أنكم ذكرتم وجوهاً التستم

ذكرها في كتاب أمانكم ، فذكرتها إجابة لكم تطميناً لأنفسكم . فلم يكن لذكرها معنى ولا في نشرها فائدة ؛ إذ كان الإسلام سنة واحدة وشرعية متبعة وهي إقامتكم على مذهبكم وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأئمة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين بعدهم وفقهاء الأئمة من الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وقواهم ؛ وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام ليلاليه والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله في كتابه ونصه نبيه صلى الله عليه في سنته وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه . ولكم على أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام في أنفسكم وأموالكم وأهلكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم وقليلكم وكثيركم ، وعلى أنه لا يُعترض (عليكم) معترض ولا يتجنى عليكم متجن ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ويُذنب عنكم ويمنع منكم فلا يتعرض إلى آذاكم ولا يُسارع أحد في الاعتداء عليكم ولا في الاستطالة على قويمكم فضلاً عن ضعيفكم . وعلى أن لا أزال مجتهداً فيما يعممكم صلاحه ويشملكم نفعه ويصل إليكم خيره وتعرفون بركته وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . ولكم على الوفاء بما التزمته وأعطيتم إياه عهداً الله وخليطاً ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم وذمة مولانا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه فتصريحون بها وتعلنون بالانصراف إليها وتخرجون إلى وتسلمون على وتكونون بين يدي إلى أن أعبّر الجسر وأنزل في المناخ المبارك وتحفظون وتحفظون من بعد على الطاعة وثابرون عليها وتسارعون إلى فروضها ولا تخذلون ولياً لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وتلتزمون ما أمرتكم به وفقكم الله وأرشدكم أجمعين »

هذا هو نص العهد الذى قطعه جوهر على نفسه وكتبه بيده فى اليوم الثامن من شهر شعبان سنة ٣٥٨ هـ وأشهد جماعة الحاضرين عليه . وفى هذا اليوم جلس أعضاء هذا الوفد على مائدة جوهر وذلك تمكينا لأواصر المودة بينه وبين رجالات مصر خاصة وتأليفا لقلوب المصريين عامة .

وهذه سياسة رشيدة من جانب جوهر ، تنطوى على شئ كثير من الحكمة وبعْد النظر . ونحن نعلم ما للآدب من الأثر فى حل المعضلات السياسية والدينية . ونلاحظ فى هذا الكتاب أموراً ثلاثة :

الأول - تعهد جوهر بنشر العدل وبث الطمأنينة فى النفوس . وذلك بحماية مصر ضد هجمات المغيرين عليها . وكان لذلك العهد أهمية كبيرة . فقد امتدت الفتوح البيزنطية إلى بلاد الشام التى كانت خاضعة للدولة الاخشيدية ، وكان من الطبيعى أن تمتد غاراتهم إلى مصر نفسها التى كان يهددها خطر القرامطة . ولاشك أن حالة الضعف التى وصلت إليها مصر بعد وفاة كافور ، وما نزل بها من وباء وما أصابها من قحط من جراء انخفاض النيل - كل ذلك قد أدّى إلى انتشار الفوضى فى البلاد . ولم يحل جوهر هذه الحالة السيئة التى وصلت إليها مصر ، فضرب على هذا الوتر الحساس ، وهو حماية الأهالى من قطاع الطرق وغيرهم من العابثين بالنظام والأمن العام .

الثانى - ترك الحرية للمصريين فى إقامة شعائرهم الدينية والعمل على إصلاح المساجد وترميمها لاجتماع المسلمين فيها للصلاة والنظر فى أمورهم . على أننا نرى جوهر لم يغفل الإي شادة بذكر العلويين والاعتراف بأحقيتهم فى الخلافة . ومعنى ذلك تمهيد السبيل لنشر المذهب الشيعى مذهب الفاطميين .

الثالث - قيام جوهر بما تتطلبه البلاد من وجوه الإصلاح ، وذلك بتحسين السكة ومنع ماعسى أن يتطرق إليها من الغش والزيف ، وإصلاح

الجسور ، وتجهيل البلاد ، وما إلى ذلك من الإصلاحات التي يُعنى بها كل فاتح مصلح .

وفي اليوم السابع من شهر شعبان عاد الوفد إلى الفسطاط يحمل عهد الصلح ، وعرضه على الأهالي فلم يقبلوه . وصمم الأخشيديون وجماعة كافور والجند على مواصلة قتال الفاطميين ، وعهدوا إلى «نحرير» بقيادة جيوشهم ، فنزل إلى الجزيرة ، وأخذ يستعد لملاقاة العدو . (١)

وفي الحادي عشر من شعبان من هذه السنة وصل جوهر إلى الجزيرة وسار إلى منية الصيادين ، ثم استولى على المخاضة بمنية شلقان حيث عبر النيل إلى مدينة مصر ؛ فلحق به جعفر بن فلاح (الذي تولى فتح الشام فيما بعد) فاستحثه جوهر على عبور النهر مع المغاربة ليكون قدوة لهم وقال له : لهذا اليوم أراذك المعز ! فخلع جعفر ثيابه وعبر النهر مرتديا سراويله ، فتبعه المغاربة . (٢)

لقى الأخشيديون المغاربة ودار القتال بين الفريقين فدارت الدائرة على المصريين وقتل منهم خاق كثير . وكان من أثر هذه الهزيمة التي لحقت بالجنود المصرية أن عبر بعض فالتهم النهر وسلخوا إلى جوهر ، ومن ثم سهل القضاء على البقية الباقية من الجنود المصريين الذين ظلموا مرابطين على المخاضة لحراستها . فقد انتزع جوهر ملابسه الخارجية ، وعبر النيل مع رجاله في السفن ، وانقضوا عليهم وشتتوا شملهم (الثلاثاء ١٦ شعبان سنة ٣٥٨ هـ) . (٣)

وبذلك تم فتح مصر ودخلت في حوزة الفاطميين فاتخذوها جسراً يعبرون عليه إلى المشرق لتحقيق أغراضهم السياسية والدينية . وقد تم ذلك

(١) ابن خالكان ج ١ ص ١٤٩ ويحيى بن سعيد ص ١٣٢ و ١٣٣

(٢) ابن خالكان ج ١ ص ١١٩

(٣) أبو المحاسن ص ٤٠٧ و ٤٠٨ والمقرئزي : اتعاظ الخنفا ص ٧٢

الفتح بسهولة لم تكن منتظرة بفضل مامتاز به جوهر من المهارة الحربية والسياسية .

وقد توقع المصريون أن يعاملهم جوهر معاملة من فتحت بلادهم عنوة فيقسم بلادهم بين الجند . لهذا لانعجب إذا رأينا المصريين يخشون عاقبة خروجهم على العهد الذى عرضه عليهم الوفد الذى أنابوه عنهم فى مفاوضة جوهر فى الصلح فيرجون أبا جعفر مسلم العلوى أن يتدخل فى الأمر من جديد ويطلب الأمان من جوهر . وعلى الرغم من أن جوهر أقدم فتح هذه البلاد عنوة فقد عامل أهلها معاملة من فتحت بلادهم صلحاً ، كما عاملهم عمرو ابن العاص من قبل فتألف بذلك قلوبهم واكتسب محبتهم فدانوا له بالطاعة ورضوا بحكمه .

وهنا نرى جوهر آيقيم الدليل على بعد نظره وحسن سياسته . فقد عفا عن المصريين وأذاع على جنوده بياناً يحرم فيه عليهم الاتيان بأى عمل من أعمال العنف والشدة ، كما جدد لأهل مصر الأمان وضمن لهم استتباب الأمن فى البلاد فى ذلك الكتاب الذى ينم عن أدب القائد الفاطمى وتواضعه وهو فى كامل قوته وفتوته . وهالك نص هذا العهد بعد البسملة نقلاً عن المقرئى : (٤)

« وصل كتاب الشريف الجليل أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأيده وعلوه وهو المهنا بما هنا به من الفتح الميمون فوقفت على ما سأل من إعادة الأمان الأول وقد أعدته على حاله وجعلت إلى الشريف أيده الله أن يؤمن كيف رأى وكيف أحب ويزيد على ما كتبته كيف شاء فهو أمانى وعن إذنى وإذن مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . وقد كتبت إلى الوزير أيده الله بالاحتياط على دور الهاربين إلى أن يرجعوا إلى الطاعة ويدخلوا فيما

دخلت فيه الجماعة ويعمل الشريف أيده الله على لقائى فى يوم الثلاثاء لسبع عشرة تخلو من شعبان .

وبذلك زالت مخاوف الأهلى وأصبحوا فى أمن وكدعة ، ولا سيما بعد أن طاف صاحب الشرطة السفلى بصحبة رسول جوهر يحمل علماً عليه اسم المعز لدين الله وأمننا الناس من جديد وأعلننا عدم مطالبتهم بأية كلفة أو مؤونة . فابتهج الناس وهدأت المدينة وعاد الأمن إلى نصابه . فلما كان الغد (الثلاثاء ١٧ شعبان) خرج أبو جعفر مسلم العلوى والوزير جعفر بن الفرات وسائر الأشراف والقضاة والعلماء والتجار إلى الجيزة . فلما وصلوا إليها أقبل القائد جوهر فى عساكره ووقف الشريف عن يمينه والوزير عن يساره ، فصاح بعض حجاب جوهر « الأرض » فقبلوا كلهم الأرض بين يديه عدا الشريف والوزير . وتقدم الناس واحداً واحداً ، فلما فرغوا من السلام عليه عادوا إلى الفسطاط .

ولما غربت الشمس عبرت الجنود الفاطمية الجسر وبين أيديهم الصناديق المملأ بالأموال محمولة على البغال . ثم أقبل جوهر فى حلة مذهبة فى فرسانه ورجاله وعسكر بجيشه فى الموضع الذى أختط فيه مدينة القاهرة . وحين ذهب المصريون فى اليوم التالى لتهنئة جوهر وجدوه قد حفر أساس قصر المعز فى الليل . (١)

ولما اتصل بالمعز نبأ فتح مصر سرَّ سروراً عظيماً وأنشد محمد بن هانىء شاعر بلاطه قصيدة طويلة مطلعها :

تقول بنز العباس هل فتحت مصرُ فقل لبنى العباس قد قضى الأمر
وقد جاوز الاسكندرية جوهرُ تصاحبه البشرى ويقدمه النصر (٢)

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٠ والمقرئى : التعاظ الخفا

(٢) دايون ابن هانىء الأندلسى ص ٨٦

وهكذا زال سلطان الأخشيديين والعباسين جميعاً عن مصر وأصبحت هذه البلاد ولاية فاطمية . فغدت الدولة الفاطمية تمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً . « ونافست القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية الشيعية الفتية بغداد حاضرة الدولة العباسية السنية المتداعية . وقد كان لتلك المنافسة أبعد الأثر في الحضارة » (١)

وكان استيلاء الفاطميين على هذه البلاد الخطوة الأولى لمد نفوذهم إلى بلاد الشام وفلسطين والحجاز التي كانت جزءاً من أملاك الدولة الأخشيديية . وبذلك تحقق الغرض الأول الذي كان يرمى إليه الفاطميون وهو إنشاء دولة فاطمية في الشرق والغرب . (٢)

Stanley Lane-Poole : The story of Cairo p. 119-120 (١)

Stanley Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties p. 71 (٢)

الباب الثالث

سياسة جوهر في مصر

الفصل الأول

فتح سورية

قد ذكرنا أن الغرض الأول من استيلاء جوهر على مصر هو بسط نفوذ الفاطميين على المشرق . فإن استيلاءهم على مصر معناه الوصول إلى بلاد الشام وفلسطين والحجاز ، وإنشاء دولة فاطمية في المشرق والمغرب . حتى إذا تم لهم ذلك استطاعوا أن يمدوا نفوذهم إلى بغداد نفسها حاضرة الدولة العباسية في ذلك الحين .

١ - حملة جعفر بن فلاح على سورية

كانت بلاد الشام في ذلك الوقت تابعة للدولة الأخشيدية . ولم يجهل الأخشيدون - وقد دالت دولتهم في مصر - ما كانت ترمى إليه السياسة الفاطمية من الاستيلاء على بلاد الشام وفلسطين والحجاز . لذلك أعد الحسن ابن عبيد الله ابن طنج الأخشيدى والى الرملة ودمشق العدة لملاقاة الفاطميين . فاستخلف شمو لا الأخشيدى على دمشق وسار هو إلى الرملة . على أن شمو لا لم يخاص للحسن ، وكاتب جوهرأ يدعو للحضور إلى دمشق ووعد العون على فتحها ، ثم تقاعد عن نصرة الحسن حين طلب إليه القدوم عليه ، في الوقت الذي وصلت فيه جيوش الفاطميين إلى فلسطين بقيادة

جعفر بن فلاح ، من قبيلة كتامة من البربر وأحد قواد المعز الذين أرسلهم إلى مصر مع جوهر . فلما عزم جوهر على فتح الشام وفلسطين عهد إلى جعفر بالقيام بهذه المهمة لما اشتهر به من الشجاعة وحسن القيادة . هذا إلى أن جوهر أَرَادَ بذلك أن يُبعد جعفرا عنه ويطوح به في بلاد الشام حتى لا ينافسه في مصر . فقد كان جعفر يرى في نفسه أنه أفضل من جوهر وأحق منه بإمرة مصر .

سار جعفر إلى بلاد الشام وكاتب ولاية الأقاليم يدعوهم إلى طاعة المعز ويعددهم حسن المكافأة . ثم التقى جيش جعفر مع جيش الحسن بن عبيد الله في الرملة ، فدارت الدائرة على الحسن وأسر هو وكثير من جنده (١) . ثم سيق إلى القسطنطين فحبس بها ، ثم أرسل إلى بلاد المغرب فبقي بها حتى مات سنة ٣٧١ هـ .

استأنف جعفر بعد ذلك السير إلى طبرية لمحاربة فاتك الذي وليها من قبل الأخشيديين ، فاستولى على المدينة من غير أن يلقى مقاومة تذكر . ولما علم أهل دمشق باستيلاء جعفر على الرملة وطبرية خشوا بأسه ، فأوفدوا إليه جماعة من كبار رجالاتهم . وقد اتفق ووصلهم في اليوم الذي قتل فيه فاتك وإلى طبرية واشتعال نار الفتنة على أثر مقتله . فلم يحسن جعفر وفادتهم ، فعادوا إلى دمشق ساخطين عليه وعلى جنده من المغاربة (٢) . وهذا يفسر لنا الصعوبة التي لاقاها جعفر في استيلائه على دمشق .

وبعد أن هزم جعفر بن عقيل ومن إليهم من العرب في حوران وطارد الفالة منهم إلى حمص ، سارت جنوده إلى دمشق ، وكان شمول قدرتها للاقادة جعفر بطبرية . فاشتدت الفوضى في المدينة وعم الاضطراب واستولى الذعر على القلوب وحمل الناس السلاح ، وخرج أهل دمشق مشاة وفرسانا

(١) أبو المحاسن : ج ٢ ص ٣٠٩

(٢) المقرئى : اتعاظ الخننا ص ٨١

لقتالهم . واستمر القتال طول يوم الجمعة حتى غروب الشمس ، ثم اشتد على أثر وصول جعفر إلى دمشق (١٠ ذى الحجة سنة ٣٥٨ هـ) . وحملت المغاربة على جند الشام وهزموهم ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً ثم دخلوا المدينة واستولوا عليها في المحرم سنة ٣٥٩ هـ ، ثم ألقوا النار في أسواقها ورحابها . ولما رأى أهل دمشق هزيمة جندهم وأنه لا قبيل لهم بالفاطميين ، خرج بعض ذوى أهل الرأى والجاه منهم لمقابلة جعفر ، وطلبوا إليه العمل على اصلاح حال مدينتهم واعادتها الى ما كانت عليه . فقبض عليهم بعض المغاربة وسلبوا ثيابهم وجرحوا كثيرين منهم ، فأثار هذا سخط أهل دمشق فشقوا عصا الطاعة وأذكوا نار الفتنة .

على ان هذه الفتنة لم تلبث أن خمدت أمام قوة جعفر ، ومن ثم لم يجد الأهلون بداً من أن يخطبوا وده . فذهبت جماعة منهم لمقابلته وطلب الأمان منه . فلم يقبل منهم جعفر ذلك حتى يخرجوا اليه ومعهم نساؤهم مكشوفات الشعور فيتمرغن في التراب بين يديه (١) ، فرفضوا بذلك صاغرين . على أنه لم يلبث أن هدأت ثائرته فتبسط معهم في الحديث واستقر الرأى بينه وبينهم على أن يصلى هو ورجاله يوم الجمعة في مسجد دمشق . وفي ذلك اليوم ركب جعفر في أصحابه ودخل المدينة وصلى بالجامع ، حيث حذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة وذكر مكانه اسم الخليفة الفاطمى ، وكان ذلك في المحرم سنة ٣٥٩ هـ (٢) . وقد انتهز أصحاب جعفر فرصة وجودهم بالمدينة فنهبوا الناس ، فثار أهل دمشق عليهم وقتلوا كثيرين منهم . ولم يجد شيوخ المدينة بداً من مقابلة جعفر لإعلان استيائهم مما حدث وطلب الأمان من جديد ، فقال لهم « دخل رجال أمير المؤمنين للصلاة فقتلتموهم » (٣) . ثم هددهم باستعمال

(١) المقرئى : اتعاظ الخنفا ص ٨٢

(٢) أبو المحاسن : ج ٢ ص ٤٠٩

(٣) المقرئى : اتعاظ الخنفا ص ٨٣

العنف والقسوة معهم . فهدأوا روعه وتلطفوا معه في القول ، حتى وعدهم العفو إذا هم دفعوا دية من قتل . فجمعوا له الأموال الكثيرة حتى ساءت حال المدينة لما نزل بأهلها من الإيهاق .

من ذلك يتبين لنا هوادة جعفر في ضبط جنده وكبح جماحهم حتى بلغ بهم الاستهتار بمركز القيادة أن كانوا يعترضون وفود الصلح والسلام من أهل دمشق ، فيقتلونهم ويسلبون أموالهم وثيابهم ، مما أثار نفوس الأهلين عليهم ووقف حجر عثرة في سبيل فتح هذه المدينة . وهذا يوضح لنا حكمة جوهر وبعده نظره وحسن سياسته . فانه لما دخل الاسكندرية أمر جنده بالكف عن أعمال السلب والنهب حتى دانت له البلاد وألقت بزمامها اليه ، مع أن جنود جوهر من المغاربة الذين تم على أيديهم فتح مصر ، هم جنود جعفر بن فلاح الذين وجههم جوهر لفتح بلاد الشام وفلسطين .

وقد رأى جعفر أن الاضطرابات لن تهدأ في دمشق وأنه لن يستطيع توطيد سلطان الفاطميين فيها ، إلا بالقضاء على زعماء الفتنة . فأرسل جنده من المغاربة في طلبهم ، فقبضوا عليهم . فأمر جعفر بهم فضربت أعناقهم وصلبت جثثهم وعلقت رؤسهم على الأبواب ، وكان من بين هؤلاء اسحق بن عَصودا . ولم ينج منهم إلا أبو القاسم بن أبي يعلى العباسي ومحمد بن عَصودا ، وكانا من أظهر زعماء الثورة . أما ابن أبي يعلى فقد هرب من الشام يريد بغداد ، فقبض عليه عند تدمر وأرسل الى جعفر حيث شهِر به ، فحمل على جمل وفوق رأسه قلنسوة وفي لحيته ريش ، ويده قصبة (١) . ثم بعث به إلى مصر . وقد ذكر أبو المحاسن (٢) أن الشريف أبا القاسم لما هرب إلى بغداد قال ابن فلاح « من أتاني به فله ألف درهم » . فلقى ابن غلبان العدو فقبض عليه وساقه إلى ابن فلاح فشهر به . ثم طلبه ليلا وقال له « ما الذي حملك على ما صنعت ، ومن ندبك إلى ذلك ؟ » فقال أبو القاسم : « ما حدثني به أحد وإنما هو أمرٌ قَدَّر »

(١) المقرئى : ألعاظ الحنفا ص ٨٣

(٢) ج ٢ ص ٤١٠

فرق له جعفر ووعدته أن يكاتب فيه القائد جوهرًا . ولا غرو فقد كان ابن فلاح يحب العلويين ، فأحسن إليه وأكرمته . أما محمد بن عسودا فقد لحق بالقرامطة في الأحساء هو وظالم بن مروهوب العقيلي وإلى حوران من قبل الإخشيديين .

وبذلك تم فتح بلاد الشام وفلسطين ، ودان أهلها لسلطان الفاطميين ، فتحقق الغرض الذي كانت ترمي إليه السياسة الفاطمية من فتح مصر واتخاذها جسراً يعبر عليه الفاطميون إلى بلاد المشرق . على أن فتح هذه البلاد ، وإن كان قد تم على يد جعفر بن فلاح ، فقد كان لسياسة هذا القائد ، وما ارتكبه من أعمال العنف والشدة وإطلاقه العنان لجنده للعبث بالنظام والاستهتار بأرواح الأهلين ، أثر سيء في صرف قلوبهم عنه ومشايعة زعمائهم وتآمرهم ضده وضد جنده من المغاربة . ومن ثم كانوا لا يدعون فرصة تمر دون أن ينتهزوها للخروج على سلطان الفاطميين . وقد ظهر أثر هذه السياسة الخرقاء في استنجد أهل الشام بالقرامطة وأفتكبن مما سنفصله بعد .

٢ — تهديد سلطان الفاطميين في سورية

١ — القرامطة

كانت دمشق قبل استيلاء الفاطميين عليها تدفع لزعيم القرامطة الحسن ابن أحمد جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار . فلما استولى عليها الفاطميون قطعوا الجزية عنه ، فصمم القرامطة على إكراههم على دفعها . ولم يتردد الحسن القرمطي في أن يطلب التحالف مع الخليفة العباسي السني في بغداد ضد الفاطميين الشيعة في مصر . بيد أن الخليفة العباسي قدر فض التحالف معه . ففكر الحسن في استمالة بني بويه إليه ، وكانوا أصحاب النفوذ الفعلي في بلاد العراق ، فرفض هؤلاء أيضا أن يحالفوه ولم يقبل التحالف معه

سوى أمير الرحبة (١) من الحمدانيين وبعض القبائل العربية . (٢)
وقد سار الحسن القرمطي الملقب بالأعصم إلى الدكة (٣) حيث اشتبك
هو وجند جعفر فاستهان به جعفر ، ولكن جنده لم تلبث أن تخاذلت عنه
وانقضت من حوله ، فهزم ثم أسر وقتل هو وكثير من أتباعه (٦ ذى الحجة
سنة ٣٦٠ هـ) . وقد عثر محمد بن عسودا على جثته خارج دمشق فقطع رأسه
وصلبه على حائط داره ، انتقاماً لأخيه اسحق الذى قتله جعفر وصلبه . (٤)
بذلك انتهت حياة هذا القائد الذى نشر سلطان الفاطميين فى سورية
وانتزعها من يد الإخشيديين وأذل زعماء الثورة التى قامت فى وجهه .

وقد عزا المقرئى (٥) ما حلّ بجعفر بن فلاح إلى ما ارتكبه من الخطأ
وسوء التدبير والتباهى بنفسه ، حتى ترفع عن جوهر وعز عليه أن يكتبه
وكاتب المعز موقفاً فى جوهر ، مبنياً ما بذله من الجهد فى فتح بلاد الشام
وفلسطين . فلما وصلت كتب جعفر بن فلاح من الشام إلى المعز وهو ببلاد
المغرب ، لم يفضها وأمر بردها إليه مع كتاب منه ينبهه إلى ما ارتكبه من سوء
التصرف ويأمره بمكاتبة جوهر باعتباره رئيسه المباشر ، وذلك على الرغم
من مكانة جعفر فى نفس المعز ، تلك المكانة التى لم تفده شيئاً بجانب تمسك
المعز بجوهر وثقته به لشدة إخلاصه وحسن بلائه . ولما علم جوهر بذلك
غضب على جعفر . وكان لذلك أثر عظيم فيما صادف جعفر من الصعاب فى
فتوحاته ، إذ أنه أحجم عن مكاتبة جوهر وطالب الامداد منه خشية أن يتقاعد
عن نصرته . وظلت الحال على ذلك حتى قدم الحسن بن أحمد القرمطي

(١) الرحبة بلدة واقعة على نهر الفرات

(٢) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٣٢٥ ، ٣٥٠ ، ٥٠٩

(٣) الدكة بلدة واقعة على نهر يزيد على مقربة من دمشق

(٤) ابن خلكان : ج ١ ص ١٤١

(٥) خطط ج ١ ص ٣٧٨

وأوقع بجعفر وأرداه قتيلاً . وقد وجد على باب قصر جعفر بدمشق بعد موته هذان البيتان :

يامنزلنا عبث الزمان بأهله فأبادهم بتفرق لا يجمع
أين الذين عهدتهم بك مرة كان الزمان بهم يضر وينفع ؟
وهكذا استولى الحسن القرمطي على دمشق ، واحتفل بانتصاره فيها ،
ولعن الخليفة الفاطمي المعز على منبر المسجد الأموي بدمشق . وقد علق
الدكتور De Lacy O' Leary (١) على ذلك بقوله : « يعتقد القرامطة بنظرية
الحق الإلهي للإمام الفاطمي ، ومن ثم يبدو هذا اللعن غريباً . وقد
يرجع هذا إلى أهل دمشق أنفسهم الذين كانوا سنيين غالين في عداوتهم للشيعة
أو إلى القرامطة الذين لم يعودوا يحفلون بشرف الانتماء إلى آل علي والذين
لا يكثر ثون بالاعتبارات الدينية أياً كانت » .

ب — أفتكين

كان أبو منصور أفتكين التركي الشرابي غلاماً لمعز الدولة أحمد بن بويه .
ولم يزل يترقى حتى عظم شأنه في بغداد وغاب على عز الدولة بختيار بن معز
الدولة بن بويه . فلها سار الأتراك من بغداد لقتال الديلم اشتهر أفتكين
بالشجاعة والاقدام ، إلا أن أصحابه انفضوا من حوله وتركوه ، ولم يبق
معه سوى طائفة قليلة العدد . فسار إلى الرحبة في نحو أربعائة رجل . فخشيته
العرب ، وخرج إليه ظالم بن موهوب العقيلي من بعلبك ، بعد أن بعث إلى
أبي محمود إبراهيم بن جعفر وإلى دمشق من قبل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي
يعلمه بأن أفتكين قد غادر بغداد وأنه في طريقه إلى دمشق لاقامة الخطبة
للخليفة العباسي . فأرسل إليه وإلى دمشق جيشاً سار نحو حوشبة لمقاتلة
أفتكين الذي أمده أبو المعالي بن حمدان بجيش كبير . فلما رأى ظالم أنه

لا قبيل له بمنازلتهم عاد إلى بعلبك ، وسار أفتكين إلى حمص ، فتلقاه أبو المعالي بالقبول وأكرم وفادته .

وقد ثار في ذلك الحين بدمشق جماعة بزعامة ابن الماورد وحاربوا ولاية المعز واشتد خطرهم . فلما بلغهم خبر خروج أفتكين بعثوا إليه بمحمص يدعونه ويعدون له باذكاء نار الثورة وأن يكونوا معه على جند المعز وعونا له على اخراجهم من دمشق ليصبح هو واليا عليها . (١) ولا غرو فقد كان أهل دمشق خاصة وأهل الشام عامة يكرهون المغاربة لمخالفتهم لهم في المذهب الديني من جهة ، وسوء سياسة الفاطميين في بلادهم من جهة أخرى . ومن ثم سار أفتكين حتى وصل بثنية العقاب في أواخر شعبان سنة ٣٦٤ هـ . (٢) دخل أفتكين دمشق من غير حرب وأقام فيها أياماً ، ثم سار لقتال ظالم ابن موهوب العقيلي . ففر ظالم من وجهه ودخل أفتكين بعلبك . وكان الروم قد سبقوه إليها ، فاتتهزوا فرصة دخوله بها ، فنهبوا وانتشروا فيها يحرقون ويسرقون ويقتلون (رمضان سنة ٣٦٤ هـ) . ثم قصدوا دمشق ، وكان أفتكين قد وصل إليها ، فقابلهم أهلها وطالبوا إليهم الرحيل في مقابل مال يؤدونه إليهم ؛ ثم استقبلهم أفتكين وأخبرهم أنه لا يستطيع جباية الأموال لنفوذ ابن الماورد وأصحابه بها . فأمر امبراطور الروم بالقبض على ابن الماورد . واشتط أفتكين في جباية الضرائب حتى جمع ثلاثين ألف دينار ، أخذها الأمبراطور وذهب إلى طرابلس . وبرحيله عن دمشق قوى نفوذ أفتكين فيها ودعا للطائع العباسي . (٣)

وفي ذلك الحين ظهر القرامطة على مسرح السياسة للمرة الثانية ضد الفاطميين الذين طالما تغنى القرامطة بأنهم من مذهبهم وبأنهم ينشرون الدعوة لهم .

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٩

(٢) ابن القلائسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦

(٣) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٩

فقد استدعاهم أفتككين من الأحساء لمعاونته على قتال الفاطميين . فقدموا دمشق في سنة ٣٦٥ هـ ، ومعهم كثير من أعوان أفتككين الذين شنت المعز شملهم ؛ فقوى بذلك نفوذهم ، واجتمعوا على اخراج الفاطميين من هذه البلاد . ترك القرامطة وأفتككين دمشق إلى الرملة فنزلوا بها ، وهاجموا يافا . ثم واصل أفتككين سيره على ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى وصل إلى صيدا . وكان بها ظالم بن موهوب العقيلي وابن الشيخ واليها من قبل المعز . فقاتلهم ابن الشيخ قتالا شديدا ، وقتل من الفريقين نحو أربعة آلاف رجل . وانتهى القتال بهزيمة ابن الشيخ وتراجع ظالم إلى صور . وقد انتقم أفتككين من جنود المعز فقطع أيدي القتلى وأرسلها إلى دمشق ، فطيف بها ، ثم سار إلى عكا وبها حامية المعز .

وهكذا تفاقم خطر القرامطة وأفتككين في الشام واستعصى أمرهما على الفاطميين ؛ ولم يتم القضاء عليهما إلا في عهد العزيز الفاطمي على يد جوهر ، وهو ما سنفصله في الباب الخامس .

الفصل الثاني

صد جوهر غارات القرامطة عن مصر

خشى جوهر ، بعد استيلائه على مصر ، خطر القرامطة لما كان يراه من تخريبهم وتدميرهم الولايات العباسية وغيرها من الأقاليم التي أغاروا عليها ، وكذا تعرضهم لقوافل الحجاج وسلبهم أموالهم . فقد ذكر المقرئى (١) أن السبب الذى حدا بجوهر إلى تأسيس القاهرة هو خوفه من غارات القرامطة على مصر وتوقعه هذه الغارات من حين لآخر . ومن ثم بنى سور القاهرة وضم بين جوانبه الخطط التي تكونت منها القاهرة المعزية ليكون هذا السور حصنا منيعا ضد هجمات القرامطة . وقد صدق حدس جوهر ، فقد هدد القرامطة مصر من ناحية الشرق بعد اشتبا بهم مع الفاطميين فى الشام واستردادهم دمشق من جعفر بن فلاح وأسره وقتله .

سار الحسن بن أحمد زعيم القرامطة إلى الرملة : (٢) حيث انضم إليه كثير من الإخشيديين بعد أن هرب واليها سعادة بن حيّان الذى ولاه عليها جوهر فى شوال سنة ٣٦٠ هـ إلى يافا . ثم استأنف الحسن مسيره إلى مصر فوصل إليها هلال ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ ، ودخل مدينة القلزم (السويس) وأسر واليها عبد العزيز بن يوسف (٣) ونهب ما كان يملك من

(١) الخطط ج ١ ص ٣٥٧

(٢) أبو المحاسن : ج ٤ ص ٤٣٢

(٣) فى ديوان المتنبي أبيات كثيرة من الشعر عن عبد العزيز هذا . ولا غرو

فإن المتنبي هو الذى سُمِّل له طريق الهروب من مصر وأضافه عنده .

الخييل والإبل . ثم هاجم الفرما ودخلها على حين غفلة من أهلها في المحرم سنة ٣٩١ هـ . فكان بذلك صاحب النفوذ في برزخ السويس ، واعترفت بسلطانه مدينة تنيس وخرجت على واليها . وقد وزعت المنشورات في جامع عمرو لحض الناس على عصيان جوهر . ثم أمعن الحسن السير في داخل البلاد وعسكر برجاله في عين شمس (هليوبوليس) وهدد القاهرة . (١)

ولما سمع جوهر بوصول الحسن إلى برزخ السويس بدأ يستعد لقتاله . فحفر خندقاً (٢) أقام عليه بابين من الحديد كانا على ميدان الاخشيد ، وبني قطرة على الخليج ووزع السلاح على المغاربة والمصريين . ثم بعث جوهر رجالاً من عنده إلى معسكر القرامطة تظاهروا بالسخط على الفاطميين والرغبة في التخلص من حكمهم ، ومازالوا يبدرون بدور الفتنة بين القرامطة حتى انتشرت الفوضى في جيوشهم ودب الانقسام في صفوفهم .

وقد بدأ القتال مع القرامطة في أوائل ربيع الأول عند باب القاهرة ، وقامت بين الفريقين معركة أسر وقتل فيها عدد كبير من الجانبين . وظلت الحرب بينهما سجالاً حتى حاول زعيم القرامطة وقائد جيوشهم الحسن بن أحمد الاستيلاء على الخندق عنوة ، وكان باب القاهرة حينئذ مغلقاً . فلما غربت الشمس أمر جوهر بفتح الباب . فابتدأ القتال ، واستعرت نار الحرب التي انتهت بهزيمة القرامطة وارتدادهم إلى القلزم . (٣)

وقد أظهر جوهر في هذه الحروب شجاعة نادرة ومهارة فائقة . فقد حمل على القرامطة حملة صادقة فردهم على أعقابهم مدحورين مهزومين ، بعد أن

(١) G. wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte, P. 32

(٢) المقرئى : اتعاظ الخنفاء ص ٩٣

(٣) أبو الفداء : ج ٢ ص ١١٧ ، ١١٨ ، المقرئى : اتعاظ الخنفاء ص ٨٦

كادت البلاد تقع في أيديهم وتتعرض لكثير من الويلات والمحن . وليس أدل على مبلغ استياء جوهر منهم وحنقه عليهم من إعلانه في البلاد عقب رحيلهم إلى القلزم مكافأة كل من أتى له بقرمطى أو برأسه بثلاثة آلاف دينار وخمسين خلعة وخمسين سرجا . (١) وقد استولى المصريون على ما تركه القرامطة من الأسلاب في ميدان القتال .

ولا شك في أن جوهر أمدن بالنصر لما قام به الجند المتطوعة من المصريين من الدفاع المجيد ، ففسد رأوا بلادهم مهددة بالغزو ، وأموا لهم معرضة للضياع ، وأرواحهم للهلاك . فصمدوا للقتال حتى ردوا القرامطة ، ثم انتقموا من مالا العدو من الجنود الاخشيدية ، فأسروا وقتلوا عدداً كبيراً منهم . وفي ذلك يقول ابن القلانسي (٢) « ونادى جوهر في الاخشيدية ، فاجتمعوا ، فعمل لهم طعاماً وحلف لهم على المصافاة ، ثم قبضهم وقيدهم وحبسهم ، وكانوا ألفاً وثلاثمائة مقاتل » . (٣)

كان هؤلاء الجنود مصدر الشغب وإثارة الفتن والقلق في البلاد . فرأى جوهر ان الأحوال لا تستقيم باطلاق الحرية لهم . وهذا يفسر لنا عدوله عن العهد الذى قطعه على نفسه بمصافتهم ، ولم يردأ من منع أذاهم باقصائهم عن الجمهور . وهذه السياسة تشبه في بعض الوجوه سياسة محمد على مع المماليك الذين كانوا مصدر شر مستطير في مصر والذين وقفوا موقف العدو الثائر الذى لا تنفع معه الحيلة ولا يصلحه اللين . ومن ثم دبر لهم مذبحة القلعة وقضى عليهم .

ولما سمع المعز وهو ببلاد المغرب خبر غزو القرامطة مصر أرسل جيشاً من

(١) المقرئى : اتعاظ الخنفا ص ٨٦

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢

(٣) وقد أطلق المعز سراحيهم حين قدم مصر سنة ٣٦٢ هـ (المقرئى : اتعاظ

الخنفا ص ٩١)

القيروان تحت قيادة أبي محمد الحسين بن عمار . فزادت قوة جوهر الحرية ، وعزم على إخضاع مدينة تنيس والانتقام من سكانها الذين والوا القرامطة وانضموا إليهم . فسار إليها وأخضع أهلها ولكنه عفا عنهم . ثم رجع أسطول القرامطة من النيل بعد أن خسر سبع سفن حربية وخمسائة أسير ، وعاد الحسن إلى دمشق ليتأهب للقتال من جديد . (١)

ولما وصل المعز إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ رأى أن ملكه لا يزال معرضاً لخطر القرامطة . فأنهم ما فتئوا يهددون مصر ، ويتابعون الإغارة عليها لا تنزاعها من الفاطميين . فأرسل المعز إلى الحسين بن أحمد القرمطي كتاباً (٢) عنوانه : « من عبدالله ووليه وخيرته وصفيه معد أبي تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين وسلالة خير النبيين ونجل علي أفضل الوصيين إلى الحسن بن أحمد » .

وقد بدأ المعز هذا الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وذكر الحسن فيه بسنة الأوائل الابتدا بالاعذار والانتها بالانذار ، كما ذكره ابن جديده أبا سعيد وأبا الطاهر كانا يدينان بنفوذهما للفاطميين ويعتقدان مذهبهم . ثم ندد بسياسة الحسن وأظهر حنقه عليه واستياءه منه في تلك العبارة : « أما أنت أيها الغادر الخائن الناكث البائن علي هدى آباءه وأجداده ، المنسلخ من دين أسلافه وأنداده ، والموقد لنار الفتنة ، والخارج عن الجماعة والسنة ، فلم أغفل أمرك ، ولا خفي عن خبرك ، ولا استتر دوني أثرك ، وإنك مني لم ينظر » . وفي نهاية الكتاب عرض عليه المعز ثلاث خصال ليختار لنفسه منها واحدة : إما أن يرد جميع ما استحوذ عليه من الأسلاب في حروبه مع جعفر وجنده بدمشق وسعادة بن حيان ورجاله بالرملة ، وإما أن يردهم أحياء ، وهو ما

(١) De Lacy O'leary : The Fatimid Khalifate P . 109 .

(٢) المقرئزي : اتعاظ الخلفاء ص ١٣٣ - ١٤٣

لا قبل له به ، وإما أن يسير هو وأتباعه إلى المعز فيحكم عليهم بالقصاص أو الفدية .

وقد رد الحسن على ذلك الكتاب الطويل الذي بعث به الخليفة الفاطمي إليه بتلك الكلمات : لقد تسلمت كتابك المملوء بالألفاظ ، الخالي من المعاني ، وسياًتيك جوابي .

ويظهر لنا أن الحسن القرمطي كان ينوى إعادة الكرة والإغارة على مصر من جديد . ولم يصرفه عن ذلك تلك الهزيمة التي حلت به على يد جوهر ، بل ولم يُرهبه ما أظهره المعز في كتابه إليه من التباهي بقوته والاستخفاف بجند عدوه . يتضح لنا صحة هذا القول من هذين البيتين اللذين نظمهما الحسن بعد هزيمته :

زعمت رجال العرب أني هبتها فدمي إذا ما بينهم مطبول

يا مصر إن لم أسق أرضك من دم يروى ثراك فلا سقاني النيل^(١)

وقد ظهر القرامطة في شهر ربيع الثاني سنة ٣٦٣ هـ للمرة الثانية في عين شمس وعاونهم أنصار الإخشيدية الذين انتشروا في جميع أنحاء مصر . فبعث المعز ابنه عبدالله إلى الوجه البحري على رأس جيش عظيم من أربعة آلاف مقاتل ، هزموا القرامطة في عدة وقائع . غير أن هذه الهزائم المتكررة لم تغت من عضد القرامطة . فقد اجتمعت أمام الخندق الذي حفره جوهر وأعدوا المعدات لاجتيازه^(٢) .

وقد استطاع الخليفة الفاطمي بواسطة جواسيسه أن يفسد قبيلة بني طلي من العرب ، فرشا زعيمها حسان بن جراح الطائي . وكانت هذه القبيلة

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢

(٢) Stanley Lane - Poole : A History of Egypt in the Middle Ages P. 113

أقوى العناصر في جيش الحسن القرمطى . وبذلك نجحت سياسته في فصل هذه القوة الكبيرة عن القرامطة . وقد خصص المعز لذلك مائة ألف دينار . ولما لم يكن في بيت المال من الدنانير ما يكفي لتحقيق هذه الفكرة ، أمر المعز بضرب نقود زائفة من الرصاص ، مغطاة بطبقة رقيقة من الذهب ، وضعت في أكياس ووضع في أعلاها قليل من الدنانير المضروبة من الذهب الخالص . فلما استعرت نار الحرب بين الفريقين انصرف بنو طى ، وولى ابن الجراح منهزماً ، وتشنت شمل القوة التي بقيت مع الحسن القرمطى ، فنهب معسكره وقتل من أتباعه نحو ألف وخمسمائة وذلك في رمضان سنة ٣٦٣ هـ . ومن ذلك الوقت بدأت قوة القرامطة في الضعف لوقوع النزاع بينهم : فارتدوا عن مصر الى غير رجعة . (١)

الفصل الثالث

الدعوة الفاطمية في مصر

— قبل الفتح

كانت القيروان أو المهدية لا تصلح حاضرة للدولة الفاطمية ، لبعدها عن الولايات الإسلامية التي كان الفاطميون يتطلعون إلى الاستيلاء عليها ، كالشام وفلسطين . ولما كانت مصر واسطة العقد بين الأمم الإسلامية ، فضلا عما اشتهرت به من الخصب ونماء الثروة ، فكر المهدي الفاطمي في غزوها وجعلها حاضرة للدولة الفاطمية بعد أن وطّد سلطانه في بلاد المغرب . ولا غرو فإن فكرة غزو هذه البلاد قديمة توارثها الخلفاء الفاطميون بعضهم عن بعض . فان امتلاك مصر معناه نشر عقائد المذهب الفاطمي في ثلاثة من الحواضر الإسلامية الكبيرة : وهي المدينة والفسطاط ودمشق ، فقد كان كل من الشام والحجاز تحت سلطان مصر في ذلك الحين .

غزت جيوش المهدي الفاطمي هذه البلاد ثلاث مرات : أما الأولى ففي سنة ٣٠١ هـ ، والثانية ابتدأت سنة ٣٠٧ هـ ولم تنته إلا سنة ٣٠٩ هـ ، في حين ابتدأت الغزوة الثالثة سنة ٣٢١ هـ واستمرت حتى عهد القائم بن المهدي سنة ٣٢٤ هـ .

وهذه الغزوات ، وإن كانت قد فشلت من الوجهة الحربية ، إلا أنها قد مهدت السبيل لنشر الدعوة الشيعية في مصر . فقد أصبح فيها عدد كبير يعطف على تلك الدعوة ، وكاتبوا الفاطميين وطلبوا اليهم غزو مصر ووعدهم العون

على فتحها . يدل على ذلك الخطبة التي ألقاها المعز على رؤساء كتامة قبيل رحيل جوهر إلى مصر . فقد جاء فيها « واني مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب أجيب عليها بخطي » . (١) وما ذكره أبو المحاسن (٢) من أن الشيعة في مصر أرسلوا إلى المعز كتباً جاء فيها « إذا زال الحجر الأسود (٣) فقد ملك مولانا المعز الدنيا كلها » . (٤) وكان لهذه المكاتبات التي دارت بين المصريين والمعز أثر عظيم في تسهيل فتح مصر على يد جوهر . ثم هذه الآيات التي نظمها ابن مهران من شهد هذه الحوادث من الشعراء ، ننقلها عن الكندي : (٥)

وقد حشدوا لمصر ودون مصر (له) خرط القتاد وأى خرط وأقبل جاهلاً حتى تخطى وجاز بجهله حند التخطى بكتب جماعة قد كاتبوه من أقباط بمصر وغير قبلى وكل كاتبوه وناقونا وكل في البلاد له مؤطى ويظهر أن الدعوة للفاطميين في مصر قد انتشرت وجذبت إليها كثيرين من الأنصار ، حتى إن ذكرا الرومي والى مصر (٣٠٣ - ٣٠٧ هـ) قد خشي استفحال أمر هذه الدعوة ، فأخذ في اضطهاد القائمين بها ، فسجن كثيرين منهم ونكل بهم .

ولاشك أن الدعوة للبيت العلوى قد صادفت نجاحاً عظيماً في مصر ، فقد أصبح فيها عدد غير قليل يعتنق المذهب الشيعى ويعمل على نشره . ويرجع ذلك إلى ما كان من إدماج الفاطميين في صفوف جندهم ، الذين

(١) المقرئى : اتعاظ الخنفا ص ٦٠ - ٦٦

(٢) ج ٢ ص ٤٤٣

(٣) يقصدون كافورا الذى كان يتولى حكم مصر اذ ذاك

(٤) المقرئى : اتعاظ الخنفا ص ٦٦

(٥) كتاب الولاة وكتاب انقضاة ص ٢٧٢

أوفدوهم لفتح مصر ، دعاة يعمدون اليهم الاختلاط بالناس وتعليمهم عقائد المذهب الفاطمي . أضيف إلى ذلك ما قام به الخلفاء الفاطميون من تشجيع هذه الدعوة ، بإرسال الكتب بخطهم مذيلة بامضاءاتهم لهذه البلاد يدعون الناس فيها لاعتناق العقائد الفاطمية . فقد كتب الخليفة الفاطمي القائم (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ ، ٩٣٤ - ٩٤٥ م) كتابا بيده إلى محمد الأخشيد وإلى مصر يدعوه فيه إلى إقامة الخطبة للخليفة الفاطمي وإزالة اسم الخليفة العباسي منها (١) . غير أن هذا الكتاب لم يكن له أثر يذكر في نفس الأخشيد ، فأهمل رسول الخليفة القائم ولم يجب على هذا الكتاب بشيء .

على أن إرسال الخليفة العباسي محمد بن رائق الخزري إلى الشام لأخذ مصر وطرده الأخشيد منها قد أحفظ الأخشيد وأثار حنقه . فتبدلت صلة الصداقة التي كانت تربطه بالخليفة العباسي إلى عداوة مستحكم . فأمر الأخشيد بإيقاف الخطبة للخليفة العباسي وإقامتها للخليفة الفاطمي .

وقد روى ابن سعيد (١) نقلا عن عمر بن الحسن الخطيب العباسي في مصر أن الأخشيد قطع الخطبة للخليفة العباسي وأمر بذكر الخليفة الفاطمي محله . وذكر أن السبب في ذلك هو ما اتصل بالأخشيد عن مسير ابن رائق لتسلم مصر منه بأمر الخليفة العباسي ، مما أثر في نفس الأخشيد ، فأمر الخطيب بالدعوة للقائم الفاطمي .

وسواء صححت هذه الرواية أو تلك ، فقد كان ذلك خطوة كبيرة للاعتراف بسلطان الفاطميين الذين زاد عدد أتباعهم في هذه البلاد .

على أن الخطيب العباسي لم يبين لنا إذا كانت الخطبة قد أقيمت فعلا للخليفة الفاطمي . فإن المؤرخين لم يكشفوا لنا عما إذا كان اسم الخليفة العباسي قد حذف من الخطبة بالفعل ، إذ لو قطعت الخطبة للخليفة العباسي لماضن المؤرخون بموافقتنا بهذا الخبر لأهميته وخطورته . فإن ذكر اسم الخليفة في

(١) المنظر ب في محلى المغرب ص ٢٥ - ٢٦

الخطبة رنقشه على السكة من أهم مظاهر الخلافة في الولايات الاسلاميه .
إلا أن ضعف الخلافة العباسية في ذلك الوقت ، وذلك العداء المستحكم
بين الخليفة العباسي والأخشيد ، وقيام علاقات المودة بين الأخشيد والفاطميين ،
وظهور فريق من المتشيعين في مصر يعمل على نشر المذهب الفاطمي — كل
ذلك يجعلنا نميل إلى القول بأن الأخشيد قد قطع الخطبة للخليفة العباسي
المطيع ولو الى حين .

وقد ظلت علاقات المودة قائمة بين مصر وبلاد المغرب ، حتى أن الأخشيد
عرض على القائم أن يزوج ابنه المنصور من ابنة الأخشيد . فوافق القائم
على ذلك وبعث بموافقته الى الأخشيد . فأرسل هذا اليه صداقاً قدره مائة
ألف دينار . فاستقل القائم هذا المبلغ ، ومن ثم توترت العلاقات بين
الأخشيديين والفاطميين .

هذا مارواه لنا ابن سعيد ونحن نشك فيه كل الشوك . اذ كيف يعقل أن
يعرض الأخشيد ، وهو أحد ولادة الخليفة العباسي ، أن يزوج ابنته من ولي
عبد الخليفة الفاطمي الذي كان يضم له العباسيون الكراهية والبغضاء . ولعل
الخليفة العباسي قد سير ابن رائق لتسلم زمام مصر من الأخشيد حين اتصل
بعلمه نبأ هذا الزواج ، فعدل الأخشيد عن المضي في هذا السبيل . ومات هو
والخليفة الفاطمي بعد قليل ، واشتغل ابنه المنصور بالقضاء على ثورة أبي
يزيد ومن ثم فشل مشروع الزواج وانقطعت العلاقات الودية بين مصر
وبلاط المغرب .

ولم يحاول الفاطميون غزو مصر في البقية الباقية من خلافة القائم
(٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) وطوال عهد المنصور (٣٣٤ - ٣٤١ هـ) . لأن قيام
الثورات التي أذكي نيرانها الخوارج — ولا سيما ثورة أبي يزيد — قد
استنفدت جهود هذين الخليفين كما استنفدت كل موارد البلاد المالية .
وظالت الحال كذلك إلى أن جاء الخليفة المعز رابع الخلفاء الفاطميين .

فحاول إعادة الكرة لغزو مصر . وقد سارت جيوشه اليها في عهد كافور
الأخشيدي ، ووصلت الى حدود هذه البلاد الغربية ، حيث حالت الجيوش
المصرية دون تقدمها داخل البلاد ، على الرغم من استقباله في بلاطه دعاة
الفاطميين الذين أرسلهم المعز لدعوته هو ورجال بلاطه وموظفي دولته
للدخول في طاعة الخليفة الفاطمي . وقد أخذت البيعة للمعز من معظم رجال
الأخشيديين والكافورية وسائر الأولياء والكتاب . (١)

ومما يدل على اهتمام كافور بشئون الأشراف في مصر هذه الحكاية التي
نرويها عن ابن سعيد (٢) الذي يقول أن كافور كان راكبا في موكبه يوما
فسقط سوطه فناوله إياه أحد الأشراف (٣) . فقبل كافور يده وقال له « نعت
إلى نفسي فما بعد أن ناوانى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطى غاية
يتشرف لها » .

ومما أثر عن كافور أن امرأة اعترضته في طريقه وصاحت به « ارحمنى
يرحمك الله ! » فدفعها أحد رجاله دفعا عنيفا ، فسقطت . فغضب كافور غضبا
شديدا ، وأمر بقطع يد هذا الرجل ، فشفعت له المرأة . فأمر كافور أحد
رجالها أن يسألها عن أهلها ونسبها . فأتضح أنها علوية . فأسف كافور على ما
حدث ثم أغدق الهبات والأرزاق عليها وعلى غيرها من نساء الأشراف . (٤)

ب — بعد الفتح

لما تم للفاطميين فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ (سنة ٩٦٩ م) أخذ جوهر في

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٧

(٢) ص ٤٧

(٣) ذكر السيوطى فى كتابه « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » أن

هذا الشريف هو أبو جعفر مسلم العلوى (ج ٢ ص ١١)

(٤) ابن سعيد ص ٤٨

بث الدعوة للخليفة المعز الفاطمي خاصة ولأهل بيته من العلويين عامة . على أنه لم يوفق في تنفيذ هذه السياسة توفيقا تاما . فقد كان السواد الأعظم من المصريين يعتقد المذهب السني ، في حين كان الشيعة أقلية صغيرة بالنسبة الى أهل البلاد .

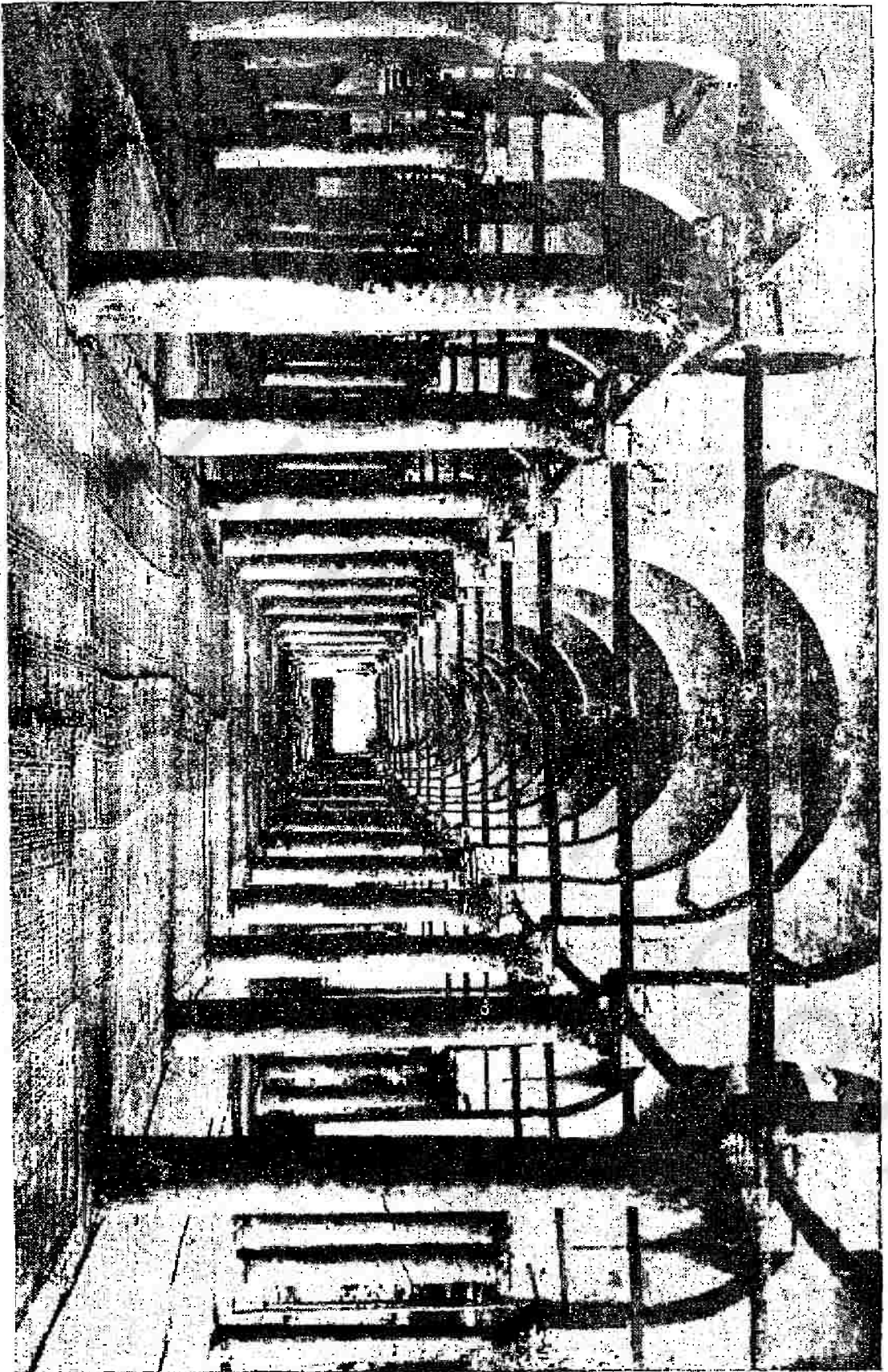
وبعد أن فرغ جوهر من وضع أساس مدينة القاهرة أمر بإلغاء الخطبة للعباسيين وإقامتها للمعز الفاطمي ، كما أمر بأن تضرب السكة باسم الخليفة الفاطمي ، ومنع لبس السواد شعار العباسيين ، وقرر لبس الملابس البيضاء وحرّم على الناس قراءة التسييح « سبح باسم ربك ! » في صلاة الجمعة ونهى عن التكبير بعد الصلاة وكان من العادات المألوفة عند السنيين . (١)

وكانت الدعوة للمذهب الفاطمي تقسام في مصر في عهد جوهر في المساجد وبخاصة في جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الأزهر الذي بناه جوهر عقب الفتح ، كما كانت الدعوة لهذا المذهب تذاع على يد داعي الدعاة ومن كان يعاونه من الدعاة .

لم يكن الغرض من بناء المساجد في مصر مقصورا على الأغراض الدينية وحدها ، فقد كان بناؤها لأسباب سياسية واجتماعية أيضا . ومن ثم أصبحت المساجد مركزا للثقافة الاسلامية ، ومثابة لاجتماع العلماء والفقهاء ، ومكانا لإذاعة الأخبار الهامة . ولما كان الغرض الاول الذي كانت ترمى اليه سياسة الفاطميين في مصر هو جذب الناس اليهم وادخالهم في حظيرة مذهبهم ، فانهم لم يألوا جهدا في بث تعاليم هذا المذهب في نفوس المصريين واتخاذهم ذلك وسيلة للوصول الى أغراضهم السياسية .

وكان في مصر عند ما فتحها الفاطميون مسجداً هما جامع عمرو في مدينة الفسطاط مركز الحركة التجارية وموطن الأهلين ، وجامع ابن طولون في القطائع . وسرعان ما بنى جوهر الجامع الأزهر في القاهرة حاضرة

obeikandi.com



جامع مروان العاصي - منظر عظيم للآثار الإسلامية

الفاطميين الجديدة . لذلك نرى أن تتكلم عن بث الدعوة الفاطمية في كل من هذه المساجد الثلاثة لنرى الى حد نجاح الفاطميون في هذا السبيل .

خطب للمعز في جامع عمرو في التاسع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ (سنة ٩٩٦ م) بعد استيلاء جوهر على الفسطاط بأيام قليلة (١) . وكان ذكر المعز في خطبة الجمعة بدل اسم الخليفة العباسي حادثاً هاماً في تاريخ مصر . (٢) فقد شاد الخطيب في خطبته بفضائل العلويين — الأئمة الصالحين — الذين انتهك الخارجون من السنيين حقهم (٣) . وبدأ النزاع الديني بين الشيعة والسنيين بصورة أشد عداء مما كانت عليه في الأزمان السالفة . فأخذ كل حزب في لعن الآخر والخط من قيمته . وفي يوم الجمعة الثامن عشر من ذي القعدة سنة ٣٥٨ هـ دعا الخطيب لآل البيت ، وزاد في الخطبة العبارة الآتية : « اللهم صل على محمد المصطفى ، وعلى علي المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً ، اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين » (٤) . وفي رمضان سنة ٣٥٩ هـ أمر جوهر بأن تنقش جدران جامع عمرو باللون الأخضر شعار العلويين .

وقد تطورت الدعوة الشيعية في جامع ابن طولون في ولاية القائد جوهر في شهر ربيع الثاني سنة ٣٥٦ هـ . فقد كان الأذان بمصر كأذان أهل المدينة وهو « الله أكبر الله أكبر » . وظل الحال على ذلك حتى قدم جوهر

(١) ابن خلكان : ج ١ ص ١٤٩

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن . الفاطميون في مصر ص ١٢٠

(٣) من خطبة هبة الله بن أحمد التي ألقاها في الجامع العتيق في ٢٠ شعبان سنة

٣٥٨ هـ (المقريزي : أتعاظ الحنفا ص ٧٥ - ٧٦)

(٤) المقريزي : أتعاظ الحنفا ص ٧٧ ، وأبو الحسن ج ٢ ص ٤٠٨ ، ابن

خلكان ج ١ ص ١٢٠

مصر . فلما كان يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ صلى جوهر في جامع ابن طولون وخطب عبد السميع بن عمر الخطيب العباسي وأذن المؤذنون « حى على خير العمل ! » ، وهى من العبارات المألوفة عند الشيعة

وقد انتقلت هذه العبارة من جامع ابن طولون الى جامع العسكر ، ومنه الى جامع عمرو . (١) ويحدثنا المقرئى أنه حضر الصلاة في جامع ابن طولون في هذا اليوم عدد غير قليل ، وأن عبد السميع الخطيب العباسي قد شاد في خطبته بذكر أهل البيت وعدّد ما أثرهم ، كما أنه دعا للقائد جوهر الذى لم يقر الخطيب على ذكر اسمه في الصلاة بحجة أن مولاه المعز لم يأمر بشيء من ذلك (٢) .

أما الجامع الأزهر فقد جعله الفاطميون مركزاً لبث عقائد مذهبهم واجتماع أشياعهم . وقد أقيمت الصلاة فيه لأول مرة في ٧ رمضان سنة ٣٦١ هـ . ولم يزد جوهر شيئاً جديداً في الأذان والخطبة في هذا الجامع على ما أدخله عليهما في جامع عمرو وابن طولون . واستمرت الحال كذلك حتى جاء المعز ، فتطورت الدعوة الفاطمية في الأزهر تطوراً عظيماً . فقد أمر الخليفة الفاطمي بأن تنقش العبارة الآتية على جدران مصر القديمة وهى « خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين على بن أبى طالب » (٣) . وفي المحرم سنة ٣٦٣ هـ (سنة ٩٧٣ م) أقام الخليفة المعز صلاة الجمعة في مصلى القاهرة التى أنشأها جوهر في رمضان سنة ٣٥٨ هـ خارج باب النصر . وأدخلت على الدعوة الشيعية مظاهر جديدة في الجامع الأزهر . فقد كان السنيون يكبرون على الميت أربعا فقط . فأمر المعز بالتكبير على الميت على حسب مكانته مقتفياً في ذلك أثر على بن أبى طالب .

(١) المقرئى : الخطوط ج ٢ ص ٢٧

(٢) ابن خلدون ج ١ ص ١٢٠

(٣) المقرئى : اتعاظ الخنفا ص .

ولما مات أحد بنى عم المعز صلى عليه هذا الخليفة فى الجامع الأزهر وكبر عليه سبعاً وكبر على ميت آخر خمساً (١) .

ولما وصل المعز الى مصر وصرف جوهر عن ولايتها قام المعز بنفسه بنشر هذه الدعوة ، ثم تولاها الخلفاء الفاطميون من بعده . وقد استعان الفاطميون فى نشر مذهبهم بالدعاة الذين كانوا يدجونهم فى جيوشهم لبث الدعاية باسمهم . وكانت الدعوة للمذهب الفاطمى ، بعد الفتح ، تداع على يد داعى الدعوة ، وكان من كبار الموظفين . وقد خصص له المعز مكاناً فى قصره . ولا يفوتنا أن من أهم أغراض السياسة التى اتبجها جوهر فى مصر لنشر الدعوة الفاطمية باسم مولاه المعز . ولسنا نشك فى أن جوهر قد استعان بطائفة من الدعاة وأنه قد عين لهم رئيساً هو داعى الدعوة ، كان مركزه الجامع الأزهر . ولا غرو فان الفاطميين لم يهتموا اهتمام كبيراً ببث دعوتهم فى المساجد الأخرى كجامع عمرو وجامع ابن طولون التى يؤمهما السنيون . ولما بنى جوهر القصر لمولاه المعز اتخذ به المعز ليكون مقراً لداعى الدعاة . وكان يساعد داعى الدعوة فى بث التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيباً ، كما كان له نواب ينوبون عنه فى سائر البلاد المصرية ، ويحضر إليه فقهاء الدولة يتلقون منه الأوامر . ويقدمون إليه فى يومى الاثنين والخميس محاضراتهم عن أصول المذهب الشيعى . فيعرضها الداعى بنفسه قبل إلقائها على الخليفة فيقر ما يقبله منها ويذيله بامضائه ، ثم يردها الداعى إليهم .

وكان داعى الدعوة يعقد المجالس فى مكانين كبيرين من قصر الخليفة . فكان يجلس على كرسى الدعوة فى الديوان الكبير ، ويبدأ بمحاضرة الرجال ، ثم يعقد للنساء مجلساً خاصاً يعرف بمجلس الداعى . وفى هذين المكانين كان يحاضر الناس ويلقنهم عقائد المذهب الشيعى . فاذا ما فرغ داعى الدعوة من إلقاء محاضراته على الحاضرين ساروا اليه لتقيل يده ، فيسمح على

رءوسهم بالجزء الذى عليه إمضاء الخليفة . وكان داعى الدعاة يجمع النجوى (١) من الاسماعيلية أثناء انعقاد هذه المجالس . وكان كل من يدفع من سراة الاسماعيلية ثلاثة وثلاثين دينارا وثلاثي دينار يعطى رقعة مذيلة بإمضاء الخليفة فيها « برك الله فيك وفي مالك وولدك ودينك ! » . فيدخرها ويفخر بها . وكان داعى الدعاة يواظب على الجلوس فى القصر للاقاء محاضراته . وكان يفرد لآل على^٢ مجلسا ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلسا ، وللعمامة والنازحين إلى مصر من البلدان الأجنبية مجلسا ، وللحرم وخواص نساء القصور مجلسا ، كما كان النساء يحضرن فى الجامع الازهر (٢) .

وكان فى قصر الخليفة مجموعة عظيمة من الكتب ، الغرض منها نشر عقائد الفاطميين وتلقينها للناس . ولاغرو فقد عنى الفاطميون عناية خاصة بازدياد عدد الكتب فى المذهب الشيعى ، حتى كانت مكتبة القصر فى القاهرة تنافس غيرها من المكتبات فى العالم الاسلامى (٣) .

ولم تقتصر أعمال الفاطميين فى نشر دعوتهم على الاشادة بمحمد آل البيت ، بل عملوا أيضا على الخط من شأن الخلفاء الراشدين الثلاثة ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان ، ثم من شأن الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس والصحابه الذين لم ينصروا عليا ولم يقولوا بأحقية فى الخلافة بعد الرسول عليه الصلاة والسلام . بل اعتبروا هؤلاء خارجين على الدين والدولة . ومن ثم نرى فضائل على^٣ وأولاده من بعده تنقش على السكة وعلى جدران المساجد فى مصر وفى البلاد التى كانت تحت سلطانتها . كما نرى الخطباء فى عهد الفاطميين يلعنون الصحابة على كافة المنابر حتى لقد ألزم جميع الموظفين المصريين أن يعتنقوا المذهب الفاطمى ، كما حتم على القضاة أن يصدرُوا أحكامهم وفق قوانين هذا المذهب . وليس بعيدا أن تكون الرغبة فى الحصول على مناصب الدولة هى التى دفعت بفريق من السنيين الى التحول الى المذهب الشيعى .

(١) النجوى الصدقة وهى عبارة عن ثلاثة دراهم وثلاث

(٢) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٩٣١

(٣) ابن خلدون : ج ٢ ص ١٤٦

الفصل الرابع

النظام الإدارى فى مصر فى ولاية جوهر

كان من سياسة جوهر أن يحل المغاربة الشيعة محل المصريين السنيين فى المناصب الهامة . ولا غرو فقد رأى أنه من الطبيعى أن تؤول أكثر مناصب الدولة الى أنصاره من المغاربة الذين قامت على أكتافهم الدولة الفاطمية ، وكما حدث ذلك فى الدولة العباسية . فقد كانت المناصب الهامة فى الدولة تسند إلى الخراسانيين لما بذلوه من المساعدة فى إقامة دولتهم . وقد بدأ جوهر فى تنفيذ سياسته بأن عمل على محو كل أثر من آثار المذهب السنى سواء كان ذلك من الوجهة الدينية أو المدنية ، ناظرا إلى معتققي هذا المذهب نظرة الخارجين على الدين .

وكان جوهر ينرب عن الخليفة المعز فى إدارة شؤون هذه البلاد . وكان فى سياسته شئ كثير من الحكمة وبعد النظر . فقد أفسح المجال أمام المغاربة ، لكي يستطيعوا الالمام بالنظم الإدارية التى كانت تسير عليها الحكومة المصرية فى عهد الأخشيديين . ويوضح لنا المقرئى هذه السياسة بقوله « ان جوهر لم يدع عملا إلا جعل فيه مغربا شريكا لمن فيه (١) » .

وقد رأى جوهر ان ينفذ سياسته تدريجيا ، حتى لا يثير شعور السنيين الذين كانت اليهم إدارة أمور الدولة ، فتتعطل الأعمال الإدارية ويضطرب حبل الأمن والنظام فى البلاد . وقد نجح جوهر فى سياسته ، نجاحا كان من أثره أن أصبحت أمور الدولة على اختلافها فى أيدي الشيعة فى سنة

٣٧٩ هـ أى بعد الفتح بنحو عشرين سنة . ولم يبق فى أيدي السنيين إلا القليل من مناصب الدولة مما ليس له أهمية أو خطر . وقد حتم جوهر على جميع موظفى الدولة أن يسيروا وفق أحكام المذهب الشيعى ، مذهب الدولة الحاكمة وكان الفاطميون يعاقبون بالعزل كل من يعرف بالهوادة فى تنفيذ هذه الأحكام . وبذلك انتشر المذهب الشيعى فى مصر بين الموظفين السنيين خشية الاضطهاد أو رغبة فى الوصول إلى المناصب العالية فى الدولة ، وحذا حذوهم فى ذلك غير المسلمين من النصارى واليهود .

وفى أوائل سنة ٣٦٣ هـ تغيرت إدارة المناصب فى مصر تغيراً عظيماً . فقد كانت دار الشرطة — بعد أن فتح العرب مصر — فى مدينة الفسطاط . فلما تأسست مدينة العسكر بنيت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا ، كما أطلق على الأولى دار الشرطة السفلى . فلما استولى الفاطميون على مصر جعلوا مقر الشرطة العليا فى القاهرة . (١) وقد ذكر ابن دقاق (٢) أن صاحب الشرطة قد توفى فى نفس اليوم الذى وصل فيه جوهر مصر . فأُسندت إلى جبر ، وبقيت دار الشرطة السفلى فى الفسطاط وتقلدها عروبة ابن ابراهيم وشبل المعرضى (٣) . وقد صرف المعز بنى عبد السميع عن الخطابة بعد أن تقلدوها أربعاً وستين سنة ، وأسندها إلى جعفر بن الحسن ابن الحسين فى جامع عمرو ، كما أسندت إلى أخيه فى الجامع الأزهر فى سنة ٣٧٩ هـ (٤) . وتقلد بيت المال محمد بن الحسين بن مهذب ، وهؤلاء كلهم من المخاربة الشيعيين .

(١) ابن ميسر ص ٤٥

(٢) ج ٤ ص ١١

(٤) المقرئى : أتعاض الخنفا ص ٩٥

(٥) الخطط : ج ٢ ص ٩٩

وكانت أهم الأعمال الإدارية التي تقلدها الشيعيون هي جباية الخراج ،
والوزارة ، والقضاء ، والحسبة .

١ - الخراج

كان أول ما اهتم به جوهر عقب الفتح هو العمل على تخفيف وطأة
القحط والمجاعة التي انتابت البلاد . فقد أنشأ مخزناً عاماً للحبوب عهد
برقائه الى المحتسب . وكانت مهمته منع احتكار الحبوب .

كان يتولى جباية الخراج في مصر حين فتحها جوهر ، علي بن يحيى بن
العرمرم . فأقره جوهر في منصبه . ولم يكده يمضى شهر على ذلك حتى أشرك
معه رجاء بن صولاب . ويغلب على الظن أن ابن صولاب هذا كان مغربياً ،
وذلك تبعاً للسياسة التي سار عليها جوهر من إسناد المناصب العالية للمتشييعين
من المغاربة وإحلالهم محل الموظفين السنيين . إلا أن موظفي الخراج لم يلبشوا
أن أصبحوا تحت إشراف يعقوب بن كلثوم وعسلوج بن الحسن ، فصرفا
ابن العرمرم وابن صولاب عن مناصبهما وجعل جباية الخراج قسمين :
أحدهما في يد علي بن محمد بن طباطبا وعبد الله بن عطاء الله ، وثانيهما في يد
الحسن بن عبد الله والحسين بن أحمد الروذباري .

وقد ذكر المقرئ (١) أن جوهر أجي خراج مصر في السنة الأولى من
ولايته ٤٠٠.٠٠٠ و٣٠٠ دينار . وكان هذا المقدار قد نقص كثيراً في أواخر
أيام كافور حين انتاب مصر القحط وعمها الوباء على أثر انخفاض النيل مدة
تسع سنوات (٣٥١ - ٣٦٠ هـ) . ولم تنته المجاعة إلا بعد شهر أكتوبر
سنة ٣٦٠ هـ (سنة ٩٦٩ م) أي في أوائل دخول الشتاء . ومن ثم بدأت
البلاد تسترد نشاطها

وقد عهد المعز الى يعقوب بن كلثوم وعسلوج بن الحسن بوضع نظام
جديد للضرائب بدل النظام القديم ، فجمعت أقسامه المختلفة في مكان واحد .

كما عمل نظام جديد لتقدير الأملاك وتحديد الضرائب التي كانت تفرض على كل منها . فوضعا نظاما دقيقا لجباية الضرائب على اختلاف أنواعها . وقد اهتمت الحكومة بتحصيل ما تأخر منها ، كما عُنيت بدراسة الشكايات التي كانت تقدم اليها فيما يختص بجباية الضرائب ، وسدكت في تنفيذ النظام الجديد سبيل الحزم ، فحمت دافعي الضرائب من اشتطاط عمال الجباية بهم . فكان من أثر هذه الخطة الحكيمة ان زادت موارد البلاد زيادة عظيمة .

ويذكر ابن ميسر (١) أنه قد بلغ ما كان يستخرج من الفسطاط في يوم واحد مقدار يتراوح بين ٥٠.٠٠٠ و ١٢٠.٠٠٠ دينار ، وأنه قد استخرج من تنيس ودمياط والأشمونين في يوم واحد أكثر من ٢٢٠.٠٠٠ دينار . وهذا بعيد كل البعد عن الحقيقة ، إذ لو كان المتوسط ١٠٠.٠٠٠ دينار في اليوم لبلغ في السنة ٣٦ مليوناً من الدنانير . وهذا شيء كثير لم تبلغه جباية مصر في عهد الفاطميين . والذي يغلب على الظن ان هذه الآلاف إنما هي دراهم لا دنانير .

ب — الوزارة

كان يتقلد منصب الوزارة ، عند فتح مصر على يد جوهر ، الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات ، الذي تولى هذا المنصب مدة طويلة في عهد العباسيين والأخشيديين . وكان سنياً غالباً . وقد أبى جوهر في بادئ الأمر أن يلقبه بالوزير وامتنع عن مخاطبته بهذا اللقب ، وقال « ما كان وزير خليفة » (٢) . إلا أنه قد أقره في منصبه ، متمشياً في ذلك مع سياسته العامة في هذه البلاد . ولم يبق لابن الفرات من منصبه إلا الاسم فقط ، فقد عين جوهر خادماً يبيت مع جعفر في داره ويلازمه في غدواته وروحانه ويراقبه في حركاته

(١) ص ٤٦

(٢) المقرئى . اتعاظ الخنفا ص ٧٠ ، ابن خلكان : ج ١ ص ١١٩

وسكناته (١) . ومن ثم ضعف نفوذ هذا الوزير الى حد كبير . ويحدثنا ياقوت (٢) إن جعفر بن الفرات اعتذر عن البقاء في دست الوزارة بعد وصول المعز الى مصر .

لما علم جعفر بقرب وصول المعز الى مصر أبى أن يستقبله في الاسكندرية . فرأى كبار السنين في ذلك إحراجاً لمركزهم ، وفرصة يستغلها المعز لاضطهادهم وأخذهم بالشدة والعنف . ومن ثم طلبوا الى جعفر أن يستقبل الخليفة حتى لا يتعرضوا لحنقه وسخطه . فأذن جعفر لطلبهم ، وخرج لاستقبال المعز في الاسكندرية .

ولسنا نشك في أن المعز قد اتصل بمسامحه ما كان من أمر هذا الوزير وإبائه الذهاب لاستقباله فأسرهما في نفسه . وقد قيل إن المعز سأل ابن الفرات « أحجّ الشيخ ؟ » فقال « نعم » . فقال الخليفة « وزُرتَ قبر الشيخين (أبو بكر وعمر) ؟ » . ولما رأى جعفر بذكائه ودهائه أن المعز قصد بهذا السؤال إحراجهم والايقاع به أجابه على الفور : « شغلني عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما شغلني أمير المؤمنين عن السلام على ولي العهد : السلام عليك يا ولي عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته ! » . وكان من أثر هذا الجواب الحكيم أن عرض المعز على جعفر منصب الوزارة ، فاعتذر عن قبوله . فطلب إليه المعز البقاء في مصر بعد اعتزاله منصبه حتى يكون على مقربة منه لاستشارته في الأمور الهامة التي تعرض له .

وتقلد منصب الوزارة من بعده يعقوب بن كلثوم وعُسلوخ بن الحسين . وقد عهد إليهما المعز بإدارة كافة شؤون الدولة الحربية والمدنية ، كما قلدهما في ١٤ المحرم سنة ٣٦٣ هـ الخراج والحسبة والسواحل والأعشار (٣)

(١) المقرئى : اتعاظ الخنفا ص ٨٥

(٢) إرشاد الأديب : ج ٢ ص ٤١٢

(٣) الأعشار : فرضها عمر بن الخطاب بادى الأمر على التجار غير المسلمين .

والجوالى (١) والأحباس (٢) والمواريث والشرطتين (٣) . ولا شك في أن إسناد هذه الأعمال الإدارية الكبرى إليهما قد قوى نفوذهما وأثر على السلطة التي كان يتمتع بها جوهر من قبل . على أن ابن كلس قد أولى ابن الفرات ثقته التامة وعول عليه في محاسبة العمال . فكان ابن الفرات يختلف إليه ويتناول الطعام عنده . وتوثقت أواصر الصداقة بينهما ولا سيما عند ما تزوج أبو العباس الفضل بن الوزير ابن الفرات بابنة الوزير ابن كلس .

ولم تنته حياة هذا الرجل العظيم بعزله من منصبه في عهد المعز ، فقد تولى الوزارة في عهد الخليفة العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ) سنة كاملة ، (٤) كما تقلد الخراج في سنة ٣٨٢ هـ بعد أن اتهم العزيز وزيره أبا الحسين بن علي بن عمر العداس بتبديد أموال الدولة وقبض عليه . وفي ربيع الأول سنة ٣٨٣ هـ أسندت الوزارة إليه ثانية فظل فيها سنة واحدة وتوفي هذا الوزير سنة ٣٩١ هـ (٥) بعد أن تقلد الوزارة في عهد العباسيين والأخشيديين والفاطميين .

ج - القضاء

كان قاضى القضاة فى مصر ، عند ما دخلها الفاتحون بقيادة جوهر ، أبو الطاهر ، وهو من قضاة المصريين السنين ، وكان قد تولى منصبه هذا منذ شهر ربيع الأول سنة ٣٤٨ هـ . فرأى جوهر أن عزله وإحلاله قاض من الشيعة

(١) الجوالى : هى عبارة عن اختيار الأحسن من كل شىء ، سواء من الممتلكات أو الشاة .

(٢) الأحباس : هى كل ما يوقف على جهة من جهات الخير ، ويصرف ما يتحصل من أموالها ، حسبما أراده الواقف .

(٣) ابن خلكان : ج ٢ ص ٤٤٠

(٤) المفريزى : الخطط ج ٢ ص ٨٤

(٥) ابن خلكان : ج ٢ ص ١٣٩

محله قد يجر الى غضب المصريين وسخطهم . فأقره في منصبه لغرض سياسى فحسب ، وعمل في الوقت نفسه على إضعاف نفوذه الى حد بعيد .

ولما وصل المعز الى مصر خف الناس لاستقباله ونزل الركب عن مطيئهم وقبّلوا الارض بين يديه عدا أبا الطاهر فانه ظل راكبا حتى قرب منه المعز فترجل وسلم عليه . ولم يقبل الأرض . فلقت ذلك نظر المعز ، وسأل أحد حجابيه عن الرجل الذى خالف الناس كلهم ، فعلم منه أنه قاضى مصر . ولما لام الناس أبا الطاهر على ذلك ذكر قوله تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهم إن كنتم إياه تعبدون) . (١)

أقر المعز أبا الطاهر في منصبه جريا على نفس السياسة التى اتبعها جوهر منذ أن فتح هذه البلاد . وليس بعيدا أن يكون المعز قد أقر أبا الطاهر في منصب القضاء لما رآه من ذكائه وحضور بديته . فقد ذكر المقرئى أن المعز حين قدم مصر سأل أبا طاهر : « كم رأيت من خليفة ؟ » . فأجابه على الفور « مارأيت خليفة غير مولانا المعز لدين الله صلوات الله عليه » . فاستحسن المعز ذلك منه ، مع علمه بأن أبا الطاهر رأى المعتضد والمكتفى والمقتدر وغيرهم من الخلفاء العباسيين .

إلا أن سلطان أبي الطاهر قد اضمحل وألزمه المعز أن يصدر أحكامه وفق عقائد المذهب الشيعى . (٢) بل زاد على ذلك فأشرك معه أبا سعيد بن أبي ثوبان المغربى في شوال سنة ٣٦٢ هـ (٣) وأسند اليه النظر في المظالم الخاصة بالمغاربة . ومالبت سلطته أن قويت حتى أصبح ينظر أيضا في القضايا

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٩٠ نقلا عن المؤلف الكبير للمقرئى بايدين .

(٢) الكندى : ص ٥٨٤

(٣) ابن ميسر : ص ٤٤ ، المقرئى : اتعاظ الخنثا ص ٩٢

المشتركة بينهم وبين المصريين ، ثم اشتد نفوذه حتى آل اليه النظر في قضايا المصريين أنفسهم ، وأصبح يطلق عليه اسم قاضى مصر والاسكندرية . (١) وفي سنة ٣٦٣ عين المعز قاضيا آخر من الشيعة ، هو على بن أبى حنيفة النعمان المغربى ، فقام أبا الطاهر القضاء . فكان يجلس ابن النعمان القضاء فى جامع عمرو ، وأبو الطاهر فى الجامع الازهر . وظلت الحال كذلك حتى استقل على بن النعمان بالقضاء عامة فى شهر صفر سنة ٣٦٦ هـ على أثر استقالة أبى الطاهر لشيخوخته وضعفه . وقد بدا ذلك الضعف عليه على أثر إصابته بفالج أبطل شقه مما جعل العزيز يقول بعد أن رآه على هذه الحالة « مابق إلا أن يقددوه (٢) » ، وأعلن تقلد على بن النعمان منصب القضاء على منبر الجامع العتيق .

وقد ظل أولاد النعمان يتقلدون هذا المنصب حتى سنة ٣٩٨ هـ . فقد تقلد الحسين بن على بن النعمان القضاء فى مصر وما يتبعها من الأعمال فى شهر صفر سنة ٣٩٣ هـ ، وأسندت مقاليد الدعوة لقاضى القضاة للمرة الأولى ، فغدا يطلق عليه « قاضى القضاة وداعى الدعاة » .

د — الحسبة

كان المحتسب الى أول عهد الفاطميين سنيا ، فأقاله جوهر على أثر الفتح وعين مكانه رجلا من المغاربة ، وذلك فى ربيع الثانى سنة ٣٥٩ هـ . وقد ثار الصيارفة على المحتسب الجديد ، لأنه أنب جماعة منهم . فاحتج الباقون وصاحوا : « معاوية خال على بن أبى طالب » . وذكر المقرئى (٣) ان الصيارفة قد شغبوا عند ما علموا عزم جوهر على حرق رحبتهم . ولكنه عدل

(١) الكندى . ص ٣٨٧

(٢) الكندى . ص ٥٨٥

(٣) المقرئى : انعاظ الخنفا ص ٨٧

عن ذلك خوفاً على الجامع . ولما توفي المحتسب المغربي تولى الحسبة سليمان ابن عسرة الذي حدث هذا الشغب في ولايته الثانية على الخراج .

وقد ارتقى نظام الحسبة في عهد الفاطميين . فكانت أعمال المحتسب واسطة بين القاضي وصاحب النظر في المظالم . وكان ينتخب من أعيان المسلمين . ولاغرو فقد كان منصب المحتسب من المناصب الدينية الهامة . فكان إليه الاشراف على الأسواق ، والمحافظة على الآداب ، واستيفاء الديون ، ومراقبة الموازين والمكاييل ، وكان لها دار خاصة تعابر فيها . (١) فكان المحتسب يطلب جميع الباعة الى هذه الدار في أوقات معينة ، ومعهم موازينهم وصنجهم ومكاييلهم ، حيث يعايرها ، فان وجد فيها نقصاً أبادها وألزم صاحبها بشراء غيرها . ثم تساهل معهم ، فكان يلزم من وجد في ميزانه خللاً أو في صنجه نقصاً باصلاحه . وقد ظلت هذه الدار طوال عهد الدولة الفاطمية ثم الايوبية . (٢)

وكان للمحتسب نواب ينوبون عنه في القيام بهذه الاعمال في مصر وغيرها من البلدان . وكان هؤلاء النواب يطوفون على أرباب الحرف ، ويلاحظون الطرق العامة ، ويفتشون قدور الطعام ، ويختتمون اللحوم ، ويباشرون محال الجزارة ، ويلزمون رؤساء السفن بالآلا يحمنوا أكثر مما يجب حمله ، ويأمرون السقائين بتغطية قربهم ومراعاة عيارها . ويمنعون معلمى الكتائب من ضرب الأطفال ضرباً مبرحاً ، ويحذرون معلمى السباحة من التفرير بالصغار .

وكان المحتسب يجلس للفصل بين الناس في جامعي عمرو والأزهر . وقد اتسعت سلطته وزاد خطرهما ، حتى كان لزاماً على رجال الشرطة القيام

(١) الماوردي : ص ٢٢٧ - ٢٣٠

(٢) المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٤٦٣ - ٤٦٤ ابن خلدون : مقدمة ص

بتنفيذ أحكامه . وكان يتقاضى راتباً شهرياً قدره ثلاثون ديناراً .

وقد ثار المصريون لما ارتكبه المغاربة من أعمال العنف والشدة ، وما كان منهم من نهب بيوت الاهلين واجلائهم عنها . إلا أن جوهر آق قد وضع بحسن سياسته حداً لما أتاه هؤلاء المغاربة من الفوضى وما أثاروه من القلاقل ، فأمر بقتل جماعة منهم . ولا شك في أن تشكيل جوهر بهؤلاء المشاغبيين والضرب على أيديهم كان مظهرآ من مظاهر سياسته الحكيمة . وكان غرضه من ذلك أن يوقف المغاربة عند حدهم ، حتى لا تتجدد الثورات التي كان يقوم بها الاهلون دفاعاً عن أموالهم وأرواحهم .

من هنا نرى أن جوهر آق قد وضع أساساً صالحاً للسياسة التي جرى عليها الفاطميون في مصر ، فقد أخذ بالشدة والبطش كل من حاول العبث بالنظام . وقد سار المعز على مثال جوهر حين عاد المغاربة سيرتهم الاولى في سنة ٣٦٣ هـ ، حيث احتلوا دور المصريين بعد أن طردوهم منها . فأمر المعز بإخراج هؤلاء المغاربة إلى مكان قريب من عين شمس ، وجعل لهم والياً وقاضياً للنظر في أحوالهم . (١) وبذلك تم انفصال المغاربة أنصار الدولة الفاطمية الشيعية عن المصريين السنيين ، وانطفأت نيران الفتن التي طالما كانت تقوم بين الفريقين بسبب اختلاطهم بعضهم ببعض . ولم نسمع بعد ذلك عن هذه الفتن شيئاً ، اللهم إلا في الاحتفالات الدينية ، كالاحتفال باليوم العاشر من المحرم ، ذكرى اليوم الذي قتل فيه الحسين بن علي بكر بلاء (٢)

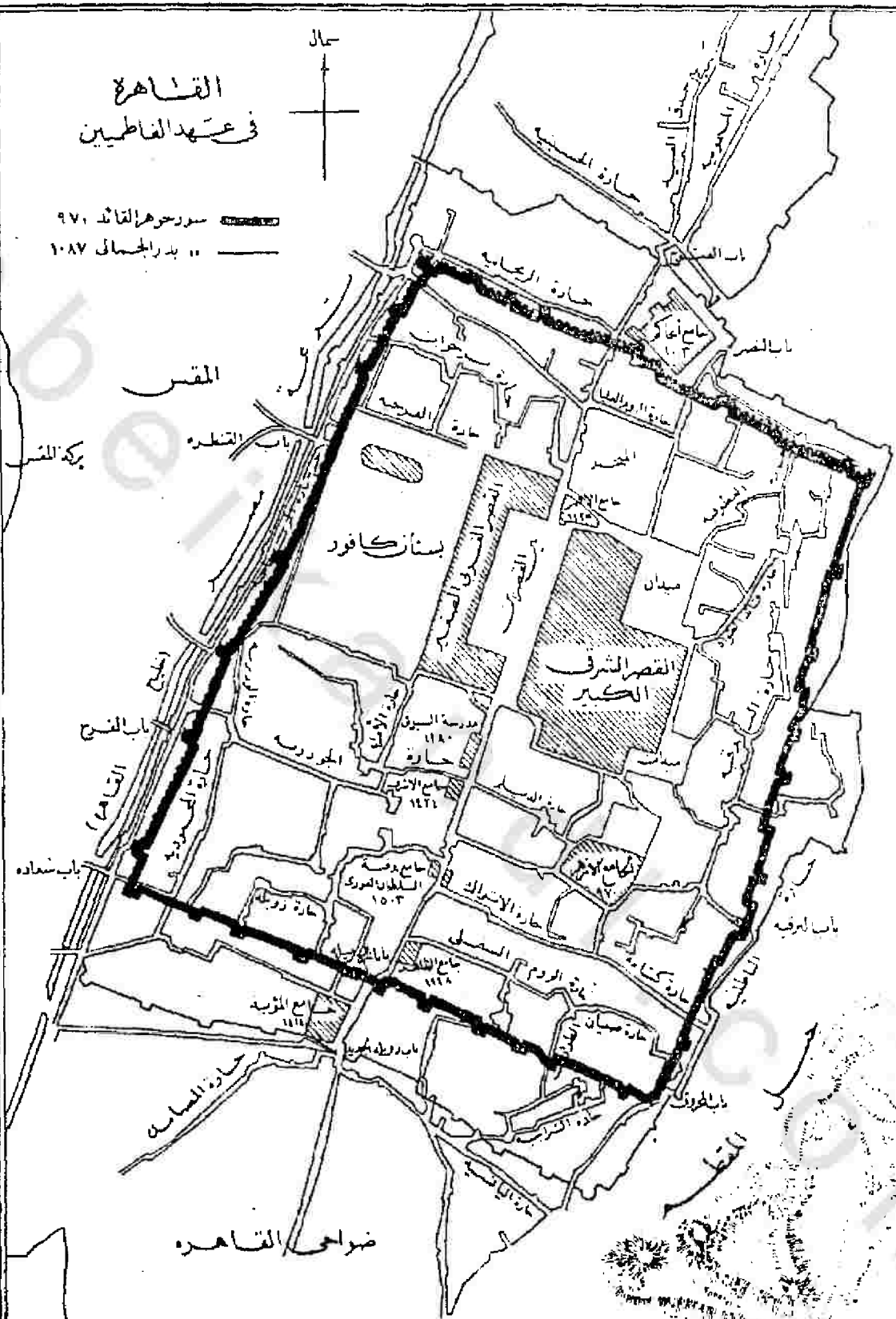
(١) المقرئى : اتعاظ الحنفيا ص ٩٦

(٢) المقرئى : اتعاظ الحنفيا ص ٨٧ ، ٩٤ ، ابن ميسر : ص ٤٥

obeikandi.com

القاهرة في عهد الفاطميين

سور حورها القائد ٩٧٠
بدر الجمالي ١٠٨٧



مقياس الرسم ١:١٢٥٠٠

الباب الرابع

منشآت جوهر في مصر

الفصل الاول

تأسيس مدينة القاهرة

كان من أهم ما يرمى اليه ولاية المسلمين في مصر وفي غيرها من البلاد الاسلامية التي فتحوها أن يؤسسوا قاعدة لملكهم تسع جندهم وتأوى أنصارهم وتضم بين جوانبها دواوين حكومتهم ، ثم يبنون فيها مسجداً يقيمون فيه شعائر دينهم . وقد سنّ هذه الشئنة ولاية مصر منذ فتحها عمرو بن العاص الذي أسس الفسطاط ، وجاء بعده صالح بن عليّ العباسي ، فأسس هو وأبو عؤن مدينة العسكر ، وأسس احمد بن طولون مدينة القطائع ، ثم جاء جوهر فبنى مدينة القاهرة . تعتبر مدينة الفسطاط أقدم هذه العواصم . فقد أسسها عمرو بن العاص بعد أن تم له فتح مصر وأجلى الروم عنها (سنة ٢٠ هـ وسنة ٦٤٠ م) . وكان عمرو يريد أن يتخذ الاسكندرية ، وكانت قاعدة هذه البلاد منذ أيام الاسكندر المقدوني (سنة ٣٣٠ ق م) ، حاضرة لولايته الجديدة ، إذ كانت عامرة آهلة بالسكان ، وأرسل بذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فسأل الخليفة رسول عمرو : « هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ » قال « نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل » . فكتب الى عمرو « إني لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب اليكم راحتى حتى أقدم اليكم قدمت » . وأشار عليه باتخاذ مدينة أخرى غير الاسكندرية .

ولا غرو فقد كان عمر بعيد النظر ، لأن العرب لم يكونوا أمة بحرية ، ومن ثم لم تعد الاسكندرية صالحة لأن تكون حاضرة للديار المصرية . فلم يكن بد إذاً من أن تتخذ العاصمة الجديدة إما على البحر الأحمر وإما في مكان تسهل منه المواصلات البرية مع بلاد العرب . ولما كان موضع الفسطاط يقع على الطريق الى بلاد العرب ، وفي مكان يسهل منه الاشراف على قسمي الديار المصرية شمالاً وجنوباً ، اتخذ عمرو حاضرة لولايته .

تقع الفسطاط في ذلك الفضاء المتسع الذي عسكر فيه عمرو بجنده عند حصاره حصن بابليون ، والذي لا يبعد كثيراً عن منف عاصمة مصر القديمة . وكانت فضاء ومزارع بين النيل والمقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن بابليون . (١)

وقد سميت هذه المدينة بهذا الاسم لأن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الاسكندرية لقتال الروم أمر برفع فسطاطه (٢) فوجد أن يمامة قد باضت فيه ، فأمر عمرو بابقائه كما هو . فلما رجع المسلمون من الاسكندرية سألوا عمرا عن المكان الذي ينزلون فيه فقال : « الفسطاط » إشارة إلى فسطاطه الذي تركه لتبيض اليمامة فيه . وبذلك سميت المدينة كلها « بالفسطاط » . (٣)

شرع عمرو بعد أن فتح مدينة الاسكندرية ونزل بجنده بجوار حصن بابليون في تأسيس مدينة الفسطاط ؛ فاخط أول جامع بني في مصر ، فسمى الجامع العتيق أو تاج الجوامع ، ثم أطلق عليه بعد ذلك جامع عمرو ، وهو الاسم الذي لا يزال يعرف به حتى اليوم (٤) ثم اختطت القبائل

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٨٩

(٢) خيمته

(٣) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٩٦ . وقد قيل في تسمية الفسطاط اقوال

اخرى ليس هنا مجال بحثها

(٤) Stanly Lane - Poole · The Story of Cairo P 42.

العربية دورها بالقرب من ذلك المسجد . وهكذا أنشئت القسطنطينية وبُنيت فيها المساكن ونزل بها الناس ، واتسع نطاقها ، وأصبحت حاضرة الديار المصرية ؛ كما . أصبحت من أمهات العواصم الإسلامية . (١)

ولما انتقلت السيادة إلى العباسيين وولى صالح بن علي العباسي ولاية مصر ، رأى أن القسطنطينية قد ضاقت بعسكره ، فأسس مدينة العسكر سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) في الفضاء الواقع في الشمال الشرقي لمدينة القسطنطينية ، واتخذها حاضرة له . ومن أجل ذلك أطلق عليه اسم العسكر ؛ وكانت بالنسبة إلى القسطنطينية أشبه بفرساي بالنسبة إلى باريس . (٢) وكان موضعها يعرف في صدر الإسلام باسم الحمراء القصوى ، وهو المكان الذي نزلت فيه ثلاث قبائل من العرب (٣) عقب الفتح الإسلامي . وقد هجرتها هذه القبائل منذ ذلك الحين فأصبح مكانها قفرا . وفي ذلك المكان أنشئت العاصمة الجديدة ؛ وهي تمتد من القسطنطينية إلى جبل يشكر الذي بنى فوقه جامع ابن طولون . وهناك أقام العباسيون دورهم ، واتخذوا مساكنهم . ثم أقام صالح بن

(١) ظلت القسطنطينية مركزا للحركة التجارية عامرة بالدور آهلة بالسكان حتى دخل مصر عمرو بن أمياري Amalaric ملك بيت المقدس في سنة ٥٦٣ هـ (سنة ١١٦٨ م) . فلم يستطع شاور وزير الخليفة الفاطمي العاضد الدفاع عنها . لأن المدينة لم تكن على عهدها الأول من القوة . أضف إلى ذلك خوفه من دخول الفرنجة فيها . فأمر بإحراقها وحرقها . ويقول المقرئ : « وبعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار ففرقت فيها ، فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء ، فصار منظرًا مهولاً . فاستمرت النار تأتي على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوما . . . ومن ثم تحولت مصر القسطنطينية إلى الأطلال المعروفة الآن بكيمان (تلأل) مصر » . ولم يتخاف من بقايا تلك المدينة البائدة إلا جامع عمرو وقصر الشمع . (المخطط : ج ١ ص ٣٣٨ - ٣٣٩)

(٢) Stanly Lane - Poole : The Story of Cairo P . 65

(٣) بني يشكر ، بني رويل ، بني الأزرق (المقرئ : المخطط ج ١ ص ٣٠٤)

على دار الامارة وثكنات الجنود وسط هذه العاصمة ، كما اتخذ المنصور من بعده قصر الذهب وسط مدينة بغداد ، حتى لا يكون أحد أبعد اليه من الآخر (١) . وفي سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) أسس الفضل بن صالح أحد ولاية العباسيين مسجد العسكر بجوار دار الامارة فأصبح من المساجد الجامعة بالديار المصرية . ثم سمح للناس بالبناء حول العسكر ، فكثرت فيها العمارة حتى اتصلت بالفسطاط ، وأصبحت مدينة كبيرة بها الشوارع والمساجد والدور والبساتين والاسواق . وهكذا أصبحت العسكر مقر الامارة والادارة والشرطة (١٣٢ — ٢٥٤ هـ) .

ولكن أهمية العسكر قد قلت كثيراً منذ بنى أحمد بن طولون مدينة القطائع ، فصار يذكر اسم الفسطاط والقطائع وترك اسم العسكر . فأصبحت هذه المدينة كأن لم تغن بالأمس . وقد ظل أمراء مصر يقيمون في دار الامارة في العسكر حتى بنى جوهر الصقلي قائد المعز مدينة القاهرة (٢) . جاءت بعد ذلك الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) ، فرأى أحمد بن طولون أن مدينة العسكر قد ضاقت بجنده وخدمه وعبيده . فسار على سنة عمرو بن العاص وصالح بن علي العباسي في تخطيط حاضرة جديدة تسع جنده وتوفر لهم مرافق الحياة ، فاختر في سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) المنطقة الواقعة شمالي الفسطاط بين جبل يشكر وسفح المقطم قرب دار الامارة بالعسكر لتأسيس

(١) Le Strange : Baghdad during The Abbasid

Caliphate p. 91

(٢) تخربت مدينة العسكر في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي على أثر المجاعة التي حدثت في ذلك الحين . فان بدر الجمالي لما حضر الى مصر وأخذ في تعمير القاهرة من جديد نقل اليها ما كان بالعسكر والقطائع من أبقار المساكين ، حتى صار مكان هاتين العاصمتين موحشاً مقفراً . ولم يبق عاصراً الى الآن من العسكر سوى جبل يشكر الذي بنى عليه جامع ابن طولون .

الحاضرة الجديدة التى سميت (بالقطائع) . ويقول المقرئزى (١) إن مدينة القطائع كانت تمتد من قبة الهواء التى بنيت على أطلالها قلعة الجبل الى جامع ابن طولون ، ومن الرملة الواقعة تحت قلعة الجبل الى مسجد زين العابدين . وقد قدرت مساحتها بميل فى ميل . (٢)

اتخذ أحمد بن طولون تحت موقع القلعة دارا يقيم فيها تحيط بها حديقة غناء ، ثم أسس مسجده المشهور المعروف باسمه ، وأقام بجواره دارالامارة ، وجعل فيما بين المسجد والقصر ميدانا فسيحا كان يلعب فيه ابن طولون وجنده بالصوالجة (٣) ؛ وقد بلغ من الاتساع مبلغا عظيما حتى سمي القصر كله بالميدان . ثم اختط كبار رجال دولة ابن طولون وقواده وغلماؤه دورهم حول ذلك الميدان واتخذت كل طائفة منهم قطيعة (٤) خاصة بها ، كما جعل للطوائف المختلفة وكذلك لأرباب الحرف والصناعات والتجار قطائع خاصة . وكانت كل قطيعة تسمى باسم الطائفة التى تسكنها ، فسميت المدينة كلها « بالقطائع » . ثم أخذ الناس فى البناء ، فعمرت المدينة ، وأقيمت فيها الدور الفخمة والمساجد والحمامات حتى اتصلت ابنيتها بالفسطاط . وجاء بعده ابنه خمارويه فوسع القطائع وجعلها « وأقبل على قصر أبيه وزاد فيه ، وأخذ الميدان الذى كان لأبيه فجعله كله بستانا ، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر » . (٥)

(١) الخطط ج ١١ ص ٣١٣ ، ابن دقاق : ج ٤ ص ١٢١ و ١٢٢

(٢) ابن دقاق ج ٤ ص ١٢١ . ويقال ان الذى قدر هذه المساحة هو ابن

سعيد الاندلسى الذى زار مصر أيام الملك الصالح أيوب .

الميل ثلث الفرسخ ويقدر بثلاثة أو أربعة آلاف ذراع .

(٣) المقرئزى : الخطط ج ١ ص ٣١٥ . والمراد بذلك لعبة الكرة المعروفة

عند الانكليز والفرنسيين باسم پولو « Polo » ؛ وهى شبيهة بلعبة كرة القدم .

(٤) القطيعة : جزء من الأرض

(٥) المقرئزى : الخطط ج ١ ص ٣١٦

ولما توفي خمارويه (سنة ٢٨٢ هـ و ٨٩٥ م) أخذت الدولة الطولونية في الضعف والانحلال . فبعث الخليفة المكتفي القائد العباسي المشهور محمد بن سليمان المكاتب لاسترداد مصر . فهزم الاسطول المصري وفر هارون بن خمارويه الى مدينة العباسية (١) ، حيث قتله عماء شيبان وعدى : . فلم يرض الجند عن عملهما ، ورفضوا إقرار تعيين شيبان وكاتبوا محمد بن سليمان . فنزل الفسطاط وسار منها الى القطائع عاصمة الطولونيين (سنة ٢٩٢ هـ و ٩٠٤ م) وأشعل فيها النار . فالتهمت الدور والمساجد والحمامات والاسواق والبساتين ؛ وأصبحت تلك المدينة الزاهرة أثراً بعد عين . (٢)

هكذا زالت الدولة الطولونية وخربت القطائع وأضحت أطلالا دارسة لم يبق منها غير المسجد الجامع . ومن ثم عادت الفسطاط مقر الامارة ومركز الادارة والجند ، فزادت مبانيها وعمرت أرجاؤها . وظلت الحال على ذلك حتى فتح مصر جوهر الصقلي قائد جيوش المعز لدين الله الفاطمي وأسس مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) .

تعتبر القاهرة رابعة حواضر مصر الاسلامية . وقد تأسست سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) على أثر دخول جيوش المعز لدين الله الفاطمي بقيادة جوهر وقضائها على الدولة الاخشيدية .

دخل جوهر الصقلي مدينة الفسطاط في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (١٧ يولييه سنة ٩٦٩ م) وعسكر في الفضاء الواقع شمالها . وفي تلك الليلة نفسها وضع جوهر أساس المدينة التي عزم على انشاؤها لتكون حاضرة الدولة الفاطمية ، كما وضع أساس قصر مولاه المعز . (٣) وقد اختطت كل قبيلة من

(١) بليدة أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام .

(٢) المقریزی : الخطط ج ١ ص ٣٣٢ ، ابن دقاق : ج ٤ ص ١٢١

(٣) Stanley Lane - Poole : The Story of Cairo P . 118

G. Migeon : Art Musulman, tome I. p. 44.

البربر حول ذلك القصر خطة عرفت باسمها . فاختطت جماعة من برقة الحارة البرقية واختطت الروم حارتين : إحداهما حارة الروم الآن والأخرى حارة الروم الجوانية بقرب باب النصر . (١)

أسس جوهر مدينة القاهرة لتكون مقرا للملك الفاطميين ومركز النشر دعوتهم الدينية ، ويتخذها حصنا منيعا لصد هجمات القرامطة الذين بدءوا يهددون حدود مصر الشمالية . اضيف الى ذلك ما كان من زحفهم على بلاد الشام وكانت تابعة لمصر اذ ذاك واستيلائهم على دمشق . ومن ثم لم ير الفاطميون بدا من اتقاء شرهم ورد غاراتهم . (٢)

ويكاد يشبه موقف جوهر في عدوله عن اتخاذ القسطنطينية أو العسكر عاصمة له وتفكيره في انشاء عاصمة جديدة تفي بأغراض الدولة الفاطمية موقف المنصور عند ما فكر في بناء بغداد . فقد كانت أمامه عواصم اسلامية عديدة يستطيع أن يتخذ أحدها حاضرة له . ولكنه نظر الى المدينة فوجدها لا تصلح لأن تكون حاضرة لخلافته ، فقد تغير الزمن واصبح البون شاسعا بين زمن النبي صلى الله عليه وسلم وزمن العباسيين . والى دمشق حافلة بذكرىات الأمويين ، كما كانت الكوفة مركز الشيعة ، هواها مع على وأولاده . اما الهاشمية فكانت قريبة من الكوفة ، وكان المنصور لا يأمن على نفسه المقام فيها ، ولا سيما بعد واقعة الراوندية . فلم يكن بد اذا من أن يتجه المنصور شرقا نحو غرب فارس ، حيث كان الأهلون يقدسون ملوكهم في عهد بني ساسان وحيث كان أنصاره ممن قامت الدولة العباسية على اكتافهم . (٣)

(١) أبو المحاسن . ج ٢ ص ٤١٦

G. Wiet : précis d'Histoire Musulmane de L'Egypte. 32

(٢) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٦١

G. Le Strange : Baghdad During the Abbasid (٣)

Caliphate p. p. 1-6.

كذلك فعل كل من قسطنطين والاسكندر من قبله . فقد رأى قسطنطين أن أثينا لا تصلح لأن تكون حاضرة لدولته لقربها من بلاد اليونان الغربية موطن الديمقراطية وشعب مجلس السناتو ، فحوّل وجهه نحو الشرق مهد الاستبداد والحكم الفردي القديم ، ورأى أن موقع بيزنطة هو المكان الذي يصلح لأن يكون حاضرة للملكة ، لأنه يفي بتحقيق أغراضه السياسية والدينية . وأما الاسكندر الأكبر فقد اختار موقع مدينة رافودة (١) لبناء الاسكندرية لتكون حاضرة لدولته وموطناً للثقافة اليونانية ، وذلك لقربها من بلاد اليونان ووقوعها على البحر الأبيض المتوسط واسطة العقد بين دول العالم القديم . هذا الى أن اليونان كانت أمة بحرية . ومن ثم كان من الضروري أن تتخذ حواضرها على البحر .

من ذلك نرى أن أول ما كان يتجه اليه نظر أكثر الفاتحين الذين يقيمون دولهم على أنقاض دولة أخرى ، أن يتخذوا عاصمة جديدة تفي بحاجات دولتهم الناشئة .

ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوايه السور ، سمي المدينة كلها بالمنصورية نسبة إلى المنصور أبي المعز ، وظلت هذه التسمية حتى قدم المعز إلى مصر فسمّاها القاهرة (٢) . وقد اختلف المؤرخون في تسمية هذه المدينة بهذا الاسم : فقال ابن دقان (٣) انها سميت بذلك لأن أساسها شق (٤) على طلوع كوكب رصده أحد الحكماء السبعة الذين كانوا بديار مصر وهو

(١) رافودة أوراوتيس كانت قرية صغيرة بجوار موقع الاسكندرية الحالي (المقريزي الخطط ج ١ ص ١٤٤) .

(٢) المقريزي الفاظ الحنفا ص ٧٣ ، الخطط ج ١ ص ٣٧٧ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ٤١٥ ابن دقان ص ٣٥

(٣) الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٦ ص ٣٥

(٤) حفر

كوكب يقال له «القاهر» . ويقول المقرئى (١) «إن القائد جوهر لما أراد بناءها أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقم بها الجند ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم أبداً . فاختاروا طالعاً لوضع الأساس ، وطالعا لحفر السور . وجعلوا بدائر السور قوائم خشب ، بين كل قائمتين حبل فيه اجراس ، وقالوا للعمال ، إذا تحركت الأجراس فارموا بأيديكم من الطين والحجارة . فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك . فاتفق أن غرابا وقع على حبل من تلك الحبال التى فيها الأجراس فتحركت كلها ، فظن العمال أن المنجمين قد حر كوها ، فالتقوا بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا . فصاح المنجمون القاهر فى الطالع . فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه . ويقال إن المريخ كان فى الطالع عند ابتداء وضع الأساس ، وهو قاهر الفلك ، فسموها القاهرة» .

ونحن لانستبعد صحة هذه الرواية ، ولا سيما أن المعز — على ما ذكره ابن القلانسى — (٢) كان مغربا بعلم النجوم ، وكان يستشير منجمه فى كل ما يتعلق بحياته الخاصة وفى أمور الدولة العامة . على أنه يظهر لنا أن هذه الحكاية تكاد تكون خرافة من تلك الخرافات التى يخلقها الناس ويتحدثون بها عند تخطيط عاصمة من العواصم . فقد ذكر المقرئى نفس هذه الحكاية عند كلامه على بناء مدينة الاسكندرية فى عهد الاسكندر .

وقيل أيضا انها سميت القاهرة لانها تقهر من شذ عنها وحاول الخروج على أميرها . وليس بعيدا أن يكون اسم القاهرة مأخوذا من قول المعز لجوهر عند مسيره لفتح مصر « ولتدخلن فى خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تقهر الدنيا» (٣)

(١) الخطط ج ١ ص ٣٧٧ ، ابو المحاسن ج ٢ ص ٤١٦

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ١٤ ، ابو المحاسن ج ٢ ص ٤١٦ ، ٤٤١ ، المقرئى

الخطط ج ١ ص ٢٥٤

(٣) القلقشندي ج ٣ ص ٣٤٩

تقع القاهرة المعزية (١) شمال الفسطاط . وكانت وقت انشائها تمتد من منارة جامع الحاكم الى باب زويلة ؛ وكانت حدودها الشرقية هي حدود القاهرة الحالية . أما الجهة الغربية فلم تتجاوز شارع الخليج (٢) . وعلى ذلك . فهي تحد شمالا بباب النصر ، وجنوبا بباب زويلة ، (٣) وشرقا بباب البرقية والباب المحروق (٤) (الدراسة الآن) ، وغربا بباب السعادة وباب الفرج وباب الخوخة .

وتشمل القاهرة المعزية — على مارواه المقرئى — احياء الجامع الأزهر والجمالية والحسينية وباب الشعيرة والموسكى والغورية وباب الخاق . (٥) ويقال إن المعز لما قدم القاهرة ورأى أنه لا ساحل لها لم يعجبه موقعها ، وقال . « يا جوهر فانتك عمارتها هاهنا ، (٦) يريد المقس » .

(١) اطلق على المدينة التى بناها جوهر للمعز اسم « القاهرة المعزية » نسبة الى الخليفة المعز (ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٣) ، كما أطلق عليها اسم « القاهرة المحروسة » لارتفاع سورها وضخامة أبوابها

Stanley Lane - Poole : The Story of Cairo p. 123, 127

G. Wiet : brécis d'His toire Musulmane de L'Egypte (٢)

(٣) ليس باب زويلة من المدينة التى أسسها جوهر بل هو زيادة حدثت بعد ذلك .

(٤) يلاحظ ان موضع هذين البابين هو غير الموضع الذى كانا فيه أيام جوهر

(٥) المقرئى الخطط ج ١ ص ٢٧٣

Stanley Lane-Poole : The Story of Cairo,

(٦) المقرئى اتعاظ الحنفا ص ٧٤

(٧) المقس ضيعة كانت تعرف بأمر دنين واقعة على ساحل النيل ، وقد جعلها المعز مرفأً صناعياً وأنشأ بها الخليفة الحاكم جامع المقس . وكانت تسمى المكس لاقامة صاحب المكس والعشار فيها ، ثم قلبت فقيل المقس . والمكس دراهم كانت تؤخذ من بائعى السلع فى الأسواق . (المقرئى : الخطط ج ٢ ص ١٢١)

وقد أحيطت القاهرة بسور كبير (١) من اللبن ، يُقَدَّر حجم اللبنة منه بذراع في ثلثي ذراع . وقد ضم ذلك السور بين جوانبه الخطط التي تكونت منها القاهرة المعزية ؛ وكان بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد هجمات القرامطة . وإلى الجنوب الشرقي من ذلك السور تقع مدينة الفسطاط ، وإلى الغرب منه تقع المقس ، وكانت ميناء القاهرة حتى تأسست بولاق (٢) بعد أن تحول مجرى النيل في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للهجرة . وقد أصبحت بولاق مدينة تجارية منذ سنة ٧١٣ هـ عند ما أمر الملك الناصر بعمارها ، وبنى بها الدور على شاطئ النيل فسكنها الناس وعمروها .

وكان اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار ، بينما كان يعرف الجزء الواقع خارج هذه الأسوار بظاهر القاهرة ، وهو خطط وأحياء جديدة تمتد فيما بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل ، وبين جبل المقطم والجهة المقابلة له من ضفة النيل ، وهي المعروفة الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق (٣) .

وفي ليلة الأربعاء ١٨ شعبان سنة ٣٥٨ هـ وضع جوهر أساس القصر الذي بناه لمولاه المعز ، في ذلك الفضاء الفسيح بداخل سور القاهرة ، وكان يقع شرقي سور المدينة . لذلك أطلق عليه اسم القصر الكبير الشرقي . وكان يسمى هذا القصر أيضا القصر المعزى ، لأن المعز لدين الله هو الذي أمر

(١) بنى سور القاهرة ثلاث مرات : الأولى في سنة ٣٥٨ هـ في عهد القائد جوهر ، والثانية في سنة ٤٨٠ هـ في خلافة المستنصر ، والثالثة في سنة ٥٦٦ هـ في عهد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (المقرئ الخطط ج ١ ص ٣٧٧ على يد وزيره بدر الجمالي الذي هدم هذا السور وبناه بالأحجار) أبو المحاسن ج ٢ ص ٤٢٣)

(٢) Stanly Lane - Poole : Egypt in the Middle Ages p. 112

(٣) المقرئ : الخطط ج ١ ص ١٠٩

جوهرا ببنائه حين سيره لفتح مصر ، ووضع له رسمه . (١) وكان يسكنه الخليفة ويجلس فيه للنظر في أمور الدولة ، كما كان به دواوين الحكومة وخزائن السلاح وغيرها ، وكذلك الجند لحراسة الخليفة . ويذكر المسيو ميجون أنه كان يحتوى على أربعة آلاف حجرة . (٢)

وكان في ذلك القصر أبواب كثيرة ، نخص بالذكر منها باب الذهب ، تعلوه منظره يشرف منها الخليفة في بعض الأوقات ، وباب العيد وأمامه رحبة متسعة تقف فيها الجنود في يومى العيدين وتعرف برحبة العيد ، وباب الديلم وموضعه الآن مسجد الحسين ، ويصل الى باب الزعفران ، وهى مقبرة الخلفاء وسائر أفراد الأسرة المالكة ، وموضعه خان الخليلي الآن . وقد دفن المعز في هذه المقبرة جثث آبائه المهدي والقائم والمنصور التي أحضرها معه في توأيت من بلاد المغرب . وقد ظلت هذه المقبرة مدفنا للخلفاء وأولادهم ونسائهم حتى أنشأ فيها ركن الخليلي ، أحد أمراء المماليك ، خاناه المعروف باسمه ، فأخرج منها عظامهم وألقاها على تلال البرقية (٣) . بين باب الديلم وباب تربة الزعفران الخوخ السبع التي كان يصل منها الخليفة الى الجامع الأزهر في ليالى الوقود (٤) . فيجلس بمنظره هذا الجامع لمشاهدة الناس . ويقابل باب الديلم الجامع الأزهر في الجنوب الشرقي من القصر ، وكان يصلي فيه الخليفة صلاة الجمعة . وبجوار رحبة باب العيد دار

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٨٤

(٢) G. Migeon : Art Musulman, tome I. P. 42.

(٣) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٤٠٧

(٤) ليالى الوقود : هى الليالى التي تسبق أول ومنتصف شهرى رجب وشعبان . وكان الناس تبعاً للتعاليم الشيعية يصومون بعض هذين الشهرين كصومهم رمضان . ولذلك كانوا يحتفلون بهذه الايام الاربعة كما يحتفلون بـرمضان . واستمر الاحتفال بهذه الايام الى وقتنا الحاضر .

الضيافة ، وكان يسمى بدار سعيد السعداء ، ويقابلها دار الوزارة . وكان هناك طريق يوصل بين باب تربة الزعفران وباب الزهومة (١) . وبين هذا الباب والجامع كانت خزائن القصر ومن بينها خزائن الكتب والمشروبات والأسلحة والكسي والفرش ، وكانت تقع في الجهة الشرقية من القاهرة المعزية . وقد دخل المعز ذلك القصر في اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ وأثنى بفاخر الرياش وكل ما يحتاج إليه الملوك والخلفاء (٢) .

وكان يقع أمام القصر الشرقى ، القصر الذى بناه العزيز ، وكان أصغر منه ويعرف بالقصر الغربى . وقد بنى فى موضعه المارستان الكبير المنصورى . ولا يزال بعضه الى اليوم يعرف بسوق النحاسين (٣) ، وبجواره الميدان والبستان الكافورى (٤) ودار الضيافة القديمة ورحبة الاقبال . وكان بين ذلك القصر والقصر الشرقى الكبير فضاء متسع يسع عشرة آلاف جندى ، أطلق عليه فيما بعد « بين القصرين » . وقد اختط جوهر طريقاً عاماً يمر وسط القاهرة من باب زويلة جنوباً الى باب الفتوح .

ويصف لنا على مبارك باشا (٥) مدينة القاهرة على النحو الذى كانت عليه أيام المعز فى هذه العبارة : « شكل مدينة القاهرة فى أيام القائد جوهر كان مربعاً تقريباً ، ضلعه ألف ومائتا متر ، ومساحة الأرض المحصورة فيه ثلثمائة وأربعون فداناً : منها نحو سبعين فداناً بنى فيها القصر الكبير ، وخمسة وثلاثون فداناً للبستان الكافورى ، ومثلها لليادين ، فيكون الباقي مائتى فدان

(١) سمي بباب الزهومة لأنه كانت تشم منه رائحة اللحم .

(٢) المقرئى اتعاظ الخنفاص ٧٤

(٣) Stanley Lane-Poole : The story of Cairo p. 128

(٤) البستان الكافورى : هو الحديقة الغناء التى أنشأها كافور واستولى عليها الفاطميون . وكان يقع غربى سوق النحاسين الآن .

G. Migeon ; Art Mussnlman, tome I. p. 41).

(٥) الخطط ج ١ ص ٨١

هو الذى توزع على الفرق العسكرية فى نحو عشرين حارة بجانبى قصبة القاهرة . وكان سور المدينة الغربى بعيداً عن الخليج بنحو ثلاثين متراً ، وفى سنة ستة وثمانين واربعمائة فى وزارة بدر الجمالى وخلافة المستنصر بالله الفاطمى هدم هذا السور وبنيت الأبواب من حجر . (١)

ولما اختط القائد جوهر مدينة القاهرة جعل لها أربعة أبواب : هى بابا زويلة وباب النصر وباب الفتوح . ويقول ستانلى لين پول (٢) ان بابى زويلة يتكونان من بابين متجاورين ، أحدهما القوس الذى كان بجوار المسجد المعروف بسام بن نوح عليه السلام ، ولهذا سمي « باب القوس » . وقد مرّ منه المعز عند قدومه من بلاد المغرب ، فكان الناس يمرون منه تبركاً . أما الباب الثانى فقد تشام منه الناس وهجروه . ويقول القلقشندي (٣) إن جوهرأ سمي بابى زويلة بهذا الاسم نسبة الى قبيلة زويلة ، احدى قبائل البربر التى جاءت معه من بلاد المغرب . ولما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر مصر فى سنة ٤٨٥ هـ (فى زمن الشدة العظمى) بنى باب زويلة الكبير الذى لا يزال باقياً الى اليوم . أما باب النصر فقد بناه جوهر خارج مدينة القاهرة ، وظل فى موضعه حتى جاء بدر الجمالى ونقله الى المكان الذى يوجد به الآن . أما الباب المعروف بباب الفتوح الآن فهو من عمل أمير الجيوش بدر الجمالى . وقد بناه فى غير المكان الذى بنى فيه جوهر بابه الذى لم يبق منه سوى عقده وعضادته اليسرى (٤) . ويقول مسيو فيت : إن هذه الأبواب الثلاثة التى جدّد بناءها بدر الجمالى تجمع بين سلامة الذوق ودقة

(١) ذكر الاستاذ مرجوليوث Margoliouth : Cairo Ierusalem and

Damascus (ان السور الذى أقامه بدر الجمالى قد زاد مساحة المدينة ٦٠ فدانا

(٢) Stanly Lane - Poole : The story of Cairo P . 129

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٢

(٤) المقرئى : الخطط : ج ١ ص ٣٨١

البناء . وهى من عمل اخوة ثلاثة أصلهم من مدينة الرها (١) »

وكانت القاهرة فى أيام جوهر صغيرة ليس بها سوى قصر الخليفة والجامع الأزهر وثكنات الجنود ودور المغاربة ورجال الحاشية وحرس الخليفة . (٢)
وكان سكانها جميعا من الشيعة . ثم ظلت تتدرج فى العمران حتى بلغت فى نهاية عهد الفاطميين درجة كبيرة من التقدم ، فأقيمت فيها المباني الفخمة والقصور الشاهقة والأسواق الكبيرة ، وأنشئت فيها الحدائق الغناء ، وبنيت بها الدور والحمامات والحوانيت والمدارس والمساجد والفنادق ، واختطت الشوارع والأزقة والدروب والحارات .

G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte (١)
P . 36 - 37

أنظر أيضاً

Mme R. L. Devonshire : quatre - Vingt Mosquées du Caire
P. 21.

Stanley Lane - Poole : The Story of Cairo p. 125 (٢)

الفصل الثاني

بناء الجامع الأزهر

دخل الإسلام مصر في سنة ٢٠ هـ (سنة ٦٤٠ م) ؛ فأخذ المسلمون في بناء المساجد . ولم يكن الباعث على بنائها مقصورا على الأغراض الدينية وحدها ، كما كان الحال في جامع عمرو ، بل كان ذلك راجعا إلى أسباب سياسية واجتماعية أيضاً . وكانت تتخذ بعض المساجد حصونا : فكان يراعى في بنائها أن تكون كبيرة الحجم لتسع عدداً كبيراً من الجند . وخير مثال لذلك جامع ابن طولون ثالث المساجد الجامعة في مصر .

ولم تلبث هذه المساجد أن استخدمت في الأغراض العلمية الى جانب الأغراض السياسية والدينية ، فكان يدرس فيها اللغة العربية وأصول الدين . وكان من بين تلك المساجد الجامع الأزهر ، الذي ذاعت شهرته وأصبح مركزا لدراسة الدين الإسلامي ، ليس في مصر فحسب ، بل في العالم الإسلامي أجمع .

كان جامع عمرو أقدم هذه الجوامع . فقد أسسه عمرو بن العاص حين رجع من الإسكندرية ، بعد تخطيط مدينة الفسطاط . وكان أول ما اتجه إليه نظره أن يبني للمسلمين مسجدا يقيمون فيه شعائرهم الدينية ، وذلك جريا على السياسة التي سار عليها المسلمون . فقد كانوا يقيمون في عاصمة كل إقليم يفتحونه مسجدا للجماعة .

بنى عمرو بن العاص جامعته المشهور سنة ٢١ هـ ، وهو أقدم جوامع مصر الإسلامية . ومن ثم أطلق عليه « المسجد العتيق » و « تاج الجوامع » و « المسجد الجامع » (١) ويقع شمالي حصن بابليون الذي كانت تقيم فيه

obeikandi.com



الجامع الأزهر - صحن الجامع وبه القبلة الوسطى

حامية الروم وقت الفتح الاسلامي . وأول من زاد في هذا الجامع مسلمة ابن مخلد الأنصاري (٤٧ — ٦٢ هـ) وإلى مصر من قبل معاوية ، فزخرف سقفه وجدرانه ووسعه من الجهتين الشرقية والشمالية . ولما ولي عبد العزيز بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) من قبل أخيه عبد الملك بن مروان هدم هذا الجامع وبناه من جديد ووسعه من جميع جهاته (١) ؛ فظل المسجد عامرا يؤمه الناس للصلاة في كل يوم . ويقول ستانلي لين پول إنه كانت لهذا المسجد أهمية دينية كبيرة عند المصريين ، ولا يزال أهل القاهرة يحرسون على إقامة صلاة الجمعة اليتيمة به الى اليوم (٢) . ولم يبق من البناء الأصلي شيء الآن ، فقد بناه عمرو باللبن . وإنما ترجع أهميته التاريخية إلى موضعه الذي بنى فيه أولا باعتباره الموضع الذي أقيم فيه أول مسجد في مصر . (٣)

ولما انتقلت السيادة الى العباسيين أسس صالح بن علي مدينة العسكر . وفي سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م.) بنى الفضل بن صالح مسجد العسكر فغدا من المساجد الجامعة بالديار المصرية ، وكان بجوار دار الامارة وسط هذه المدينة . ثم زاد فيه عبد الله بن طاهر وإلى مصر من قبل المأمون وظل قائما في مكانه حتى خربت المدينة كلها ونقل انقاضها أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (٤) إلى مدينة القاهرة لتعميرها .

ثم جاءت الدولة الطولونية فبنى احمد بن طولون سنة ٣٦٣ هـ مسجده المعروف باسمه على جبل يشكر في الجهة الجنوبية من القاهرة الحالية والجهة

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٤٦

(٢) Stanley Lane-Poole : The Story of Cairo P . 44

(٣) Mme R. L . Devonshire : quatre-vingts Mosquées du Caire P . 10

(٤) المقرئى الخطط جزء ٢ ص ٢٦٤ — ٢٦٥

الشمالية من العسكر . ويقال ان الذى دعاه إلى بنائه هو ضيق مسجد العسكر بالمصلين لكثرة جند احمد بن طولون وخدمه وعبيده من جهة ثم التقرب الى الله تعالى من جهة أخرى . وقد جدده المنصور لاجين سنة ٥٦٩٦ هـ ، فإنه بعد أن قتل الملك الأشرف برسباي اختفى في ذلك الجامع ونذر أن يعمره إذا من الله عليه بالخلاص . وقد وفى بنذره فاهتم بعماراته وأعادته الى ما كان عليه من البهاء والرواء ، ووقف عليه الأوقاف وقرر تدريس العلوم العقلية والنقلية فيه (١) .

وهذا الجامع هو أقدم آثار مصر الإسلامية التي بقيت على حالها الأول (٢) . فقد سقطت مباني مدينة القطائع وزالت معالمها عدا هذا المسجد ، وذلك حين جاء محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة العباسي المكتفى الى مصر ووضع النار فيها بأمر الخليفة . ويرجع السبب في بقاء هذا الجامع حتى اليوم الى استعمال الجير والرماد والآجر الأحمر القوي النار في بنائه . وقد أشير على ابن طولون باستعمال هذه المواد في البناء حين قال لأصحابه : « أريد أن ابني بناء إن احترقت مصر بقي ، وإن غرقت بقي » (٣) .

جاءت بعد ذلك الدولة الفاطمية ، وتم فتح مصر على يد جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله سنة ٣٥٨ هـ وأسس مدينة القاهرة في نفس الليلة التي دخل فيها مدينة مصر (الفسطاط والعسكر) لتكون أشبه بمدينة حصينة ومعقلا له ولجنده وأنصاره من المغاربة ولتقيه شر القرامطة . وكان المذهب السني في ذلك الوقت منتشر في مصر ، ولم ير جوهر - بما عرف عنه من الحزم وبعد النظر - أن يفاجئ السنيين في مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمي . نخص منها

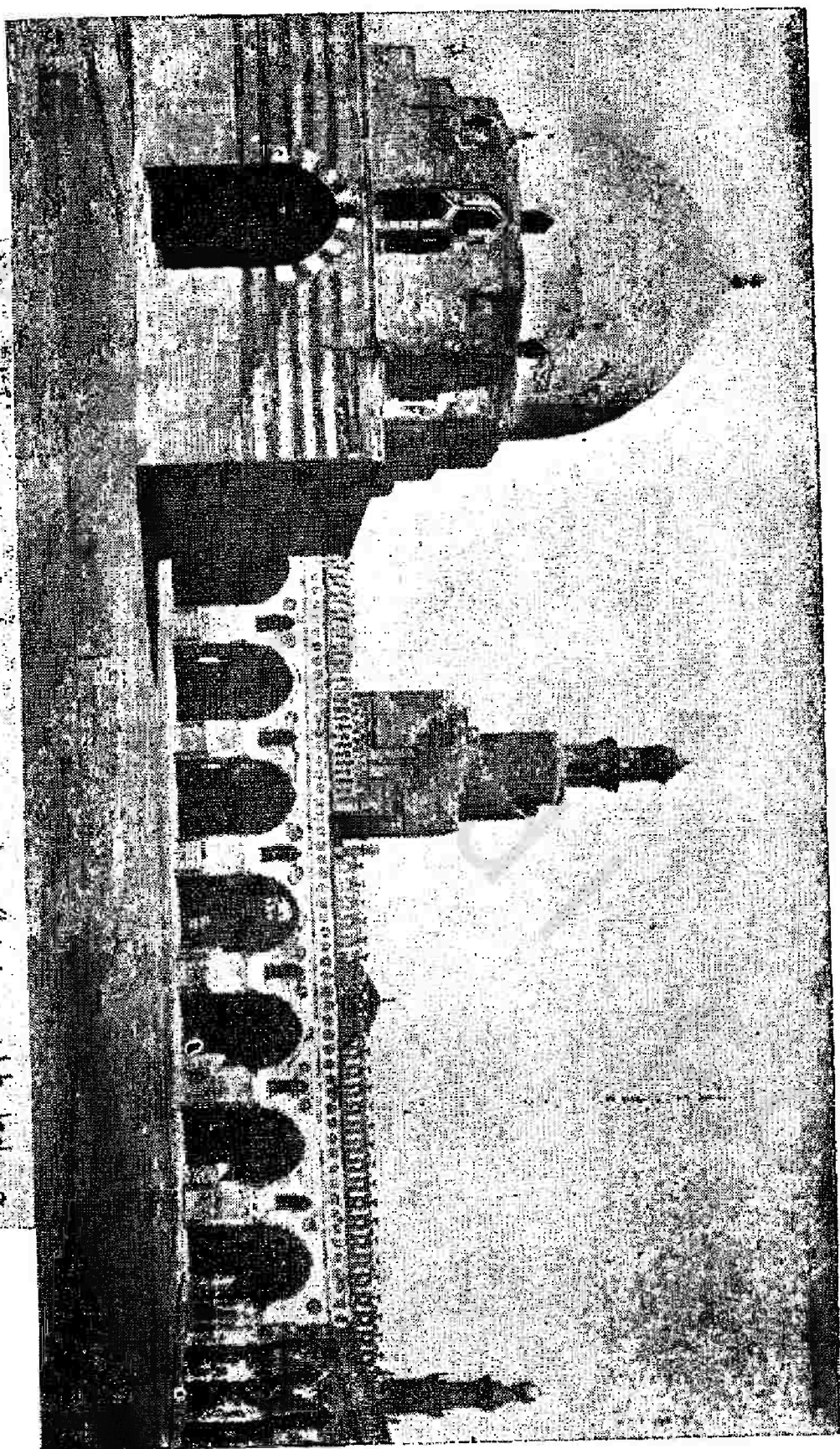
(١) ابن دقاق : ج ٤ ص ١٢٢ - ١٢٤

(٢) » » » » » »

(٣) المقرئى : المخطوط ج ٢ ص ٢٦٧

obeikandi.com

مساجد بن طولون - ابراهيم بن طولون - القاهرة القديمة ، وتظهر في قبة العبداء



بالذكر تلك العبارة « السلام على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله »
التي كان يذكرها الفاطميون في الخطبة ، حتى لا يثير جوهر حفيظة المصريين .
لذلك عوّّل جوهر على تلافي الشر قبل وقوعه . فبنى مسجداً يتلقى فيه الناس
عقائد المذهب الفاطمي . ومن ثم شرع في بناء الجامع الأزهر في يوم السبت
الرابع من شهر رمضان سنة ٣٥٩ هـ (سنة ٩٧٠ م) . وتم بناؤه في سنتين تقريباً ،
وأقيمت الصلاة فيه لأول مرة في اليوم السابع من شهر رمضان (سنة ٣٦١ هـ
و ٢٢ يونيو سنة ٩٧٢ م) (١) .

كان الأزهر أول مسجد شيد في مدينة القاهرة المعزية وأشهر جامع في
العالم الإسلامي ، وأعظم جامعة إسلامية تُدرس فيها العلوم الدينية والعقلية
الآن ، تقصده الطلاب من جميع البلاد الإسلامية لتلقي العلم فيه . (٢)
وقد اختلف المؤرخون في تسمية هذا الجامع . فقال بعضهم انه كان
يحيط به القصور الزاهرة التي بنيت عند انشاء مدينة القاهرة ، ولذا سمي
بالأزهر . وقال آخرون انما سمي كذلك تفاؤلاً بما سيكون له من الشأن
العظيم والمكانة الكبرى بازدهار العلوم فيه . ويظهر لنا أن الفاطميين الذين
ينتسبون إلى فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم سموه الأزهر إشادة بذكر
جدتهم فاطمة الزهراء .

يشتمل الأزهر على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة ، وآخر غير
مسقوف يسمى صحناً ، وما إلى ذلك من الملحقات التي تتبع المساجد عادة

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٧٣ ، القلقشندي ج ٣ ص ٣٦٤

Stanley Lane - Poole : The Story of Cairo, p. 128

Mme R . T . Devonshire : quatre - vingts Mosquées du (٢)

Caire P . 11

G . Migeon : Art Musulman, tome I. p. 41

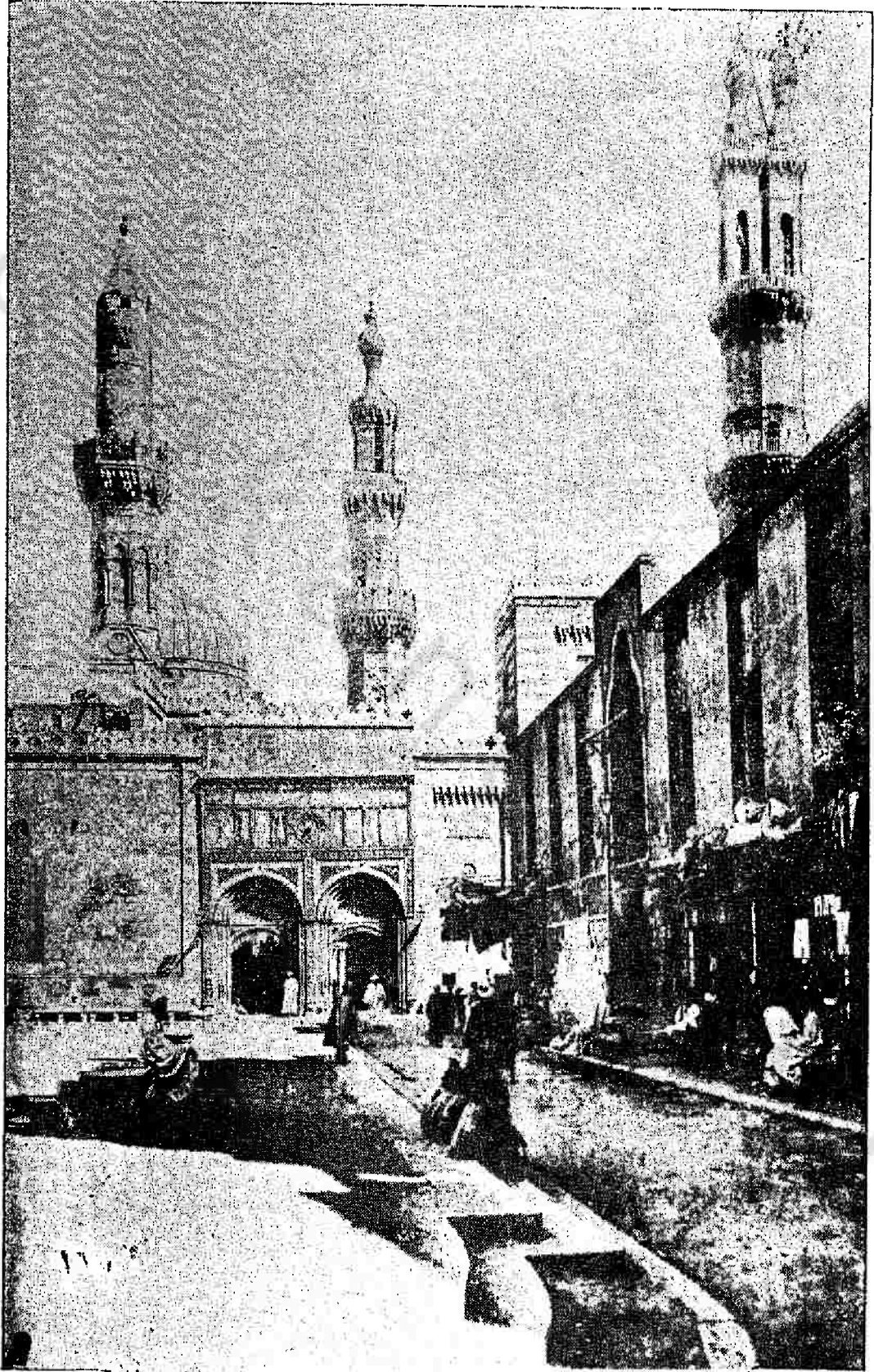
من منارات ومغاطس وغيرها . وقد بنى فيه القائد جوهر مقصورة كبيرة بها ستة وسبعون عمودا من الرخام الجيد الأبيض اللون في صفوف متحاذاة . وفي سنة ١٦٧ هـ بنى الأمير عبد الرحمن كتخدا مقصورة ثانية بها خمسون عمودا من الرخام . وبذلك أصبح بهذا الجامع مقصورتان عدد أعمدهما مائة وستة وعشرون عمودا . وإذا أضيف إلى هذا العدد الأعمدة الموضوعة بمالحقات الجامع كان مجموعها ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً ، وترتفع المقصورة الجديدة نصف ذراع عن التي بناها القائد جوهر . وسقف المقصورتين من الخشب المتقن الصنع ، وهما متلاصقتان ، وفي كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء . وأما صحن الجامع فهو مكان متسع غير مسقوف ، مرصوف بالحجر ، يجلس فيه الطلبة في الشتاء للتمتع بحرارة الشمس ، وينامون به في فصل الصيف عند اشتداد الحر ، ويقيمون فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين . وهو محاط من جهاته الأربع بيوائك تقوم على أعمدة من الرخام ، وعلى حيطانه آيات قرآنية منقوشة بخط كوفي جميل . (١)

وقد أنشأ القائد جوهر بهذا الجامع محراباً بالمقصورة القديمة يسمى الآن القبلة القديمة ، ثم أقيمت به تسعة محاريب أخرى . ولم يبق من هذه المحاريب سوى ستة أشهرها اثنان أحدهما بالمقصورة القديمة ، والآخر بالمقصورة الجديدة . ولكل منهما إمام يخالف صاحبه في المذهب الديني .

وللجامع منبر واحد ، وهو من الخشب المخروط الجميل الصنع . وله خطيب خاص في الجمع والأعياد . وقد نقل المنبر الأصلي الذي أنشأه القائد جوهر إلى جامع الحاكم .

وقد أنشئ بالأزهر عند تأسيسه منارة واحدة ، ثم أصبح به فيما بعد خمس منارات يؤذن عليها في أوقات الصلوات الخمس وفي ليالي رمضان والمواسم . وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتي ، ووظيفته التنبيه

obeikandi.com



الجامع الأزهر - الباب الخارجي للجامع

على أوقات الصلوات . وكان يتبع أذان المنارات الأخرى بالقاهرة أذان
الازهر . وكان الميقاتى يعرف الأوقات بالنظر فى المزولة التى لاتزال قائمة
الى اليوم بأحد جدران صحن الأزهر .

وكان المعز يذهب الى الجامع الازهر فى يوم الجمعة فى موكب حافل
لإقامة الصلاة . وقد سار على هذه الشئنة من جاء من الخلفاء الفاطميين بعد
المعز . وقد ذكر المقرئى (١) أن الخليفة العزيز الفاطمى هو أول من حوّل
الازهر من مسجد تقام فيه الصلاة الى جامعة تدرس فيها العلوم ، كما كان أول
من أجرى الارزاق على طلاب العلم فيه وبني لهم المساكن للإقامة فيها .

الباب الخامس

حياة جوهر في مصر بعد قدوم المعز اليها

الفصل الاول

قدوم المعز الى مصر

ظل جوهر يحكم مصر بنفسه أربع سنوات ، منذ فتحها سنة ٣٥٨ هـ حتى قدم اليها المعز سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) (١) . وقد ذكر ابن خلكان (٢) ان جوهر طالما كتب الى المعز يستدعيه للحضور الى مصر لتولى شؤونها بعد ان رأى أن مصر والشام والحجاز قد خضعت لسلطان الفاطميين وخطب للمعز على منابرهما . فلما وجد المعز ان دعائهم ملكه قد توطدت في الشرق ، عزم على الرحيل الى مصر .

خرج المعز من المنصورة يوم الاثنين ٢١ شوال سنة ٣٦١ هـ (٥ أغسطس سنة ٩٧٢ م) ، يريد مصر . فوصل سردانية وأقام بها مدة حتى اجتمع اليه رجاله وأتباعه . وهناك عقد العهد لبلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى على افريقية (الأربعاء ٢٢ ذى القعدة سنة ٣٦١ هـ ، سبتمبر سنة ٩٧٢ م) . وأمر المعز أهل افريقية بطاعته والائتمار بأمره (٣) . ثم رحل عنها يوم الخميس ٥ صفر سنة ٣٦٢ هـ ، ولم يزل في طريقه حتى وصل الى برقة

(١) ابن خلكان : ج ١ ص ١٢٠

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٢

(٣) ابن خلكان : ج ٢ ص ١٠٨

ومنها الى مصر (١). وقد دخل المعز الاسكندرية ، تمتط جواده (السبت ٢٣ شعبان سنة ٣٦٢ هـ (١٩ مايو سنة ٩٧٣ م) ، في جمع كبير من رجالات دولته ، من بينهم أولاده واخوته وأعمامه ، ومعه جيش آباءه المهدي والقائم والمنصور (٢). فاستقبله أعيان البلاد ، وعلى رأسهم أبو الطاهر قاضي مصر . فجلس المعز عند المنارة وخطبهم خطبة طويلة ذكر فيها « أنه لم يرد دخول مصر لزيادة في ملكه ولا لمال ، وإنما أراد إقامة الحق والحج والجهاد ، وان يختم عمره بالأعمال الصالحة ، وأن يعمل ما أمر به جده صلى الله عليه وسلم . » ثم وعظهم وأطال في الوعظ حتى بكى بعض الحاضرين . ثم خلع على القاضي وبعض من كان معه ، ثم انصرفوا بعد أن حملهم على دوابه . (٣)

. رحل المعز من الاسكندرية في أواخر شعبان سنة ٣٦٢ هـ ووصل الى الجيزة في ٢ رمضان من هذه السنة . فخرج اليه القائد جوهر وترجل عند لقائه وقبل الأرض بين يديه . واجتمع به الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات . وقد أقام المعز بالجيزة ثلاثة أيام ، أخذ عسكره خلالها في العبور بأمعتهم الى ساحل مصر . وفي يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ عبر المعز النيل ودخل القاهرة دون ان يمر على القسطنطين ، وكان الأهليون قد زينوها له بالزيينات الباهرة ظناً منهم أنه سيبدأ بدخولها ، بينما يستعد أهل القاهرة للقاءه (٤)

ولما وصل المعز الى القاهرة (الثلاثاء ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ) ، دخل :

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ١٠٢

(٢) G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte p . 33

G. Wiet : Art Musulman, tome I. p.41

(٣) ابن خلكان : ج ٢ ص ١٠٢

(٤) G. Migeon : Art Musulman, tome I. p.41

القصر الذى بناه له جوهر ، وخر ساجداً لله تعالى ، ثم صلى ركعتين فى إحدى ردهاته ، وصلى خلفه من كان معه . « وقد أصبحت مصر منذ ذلك الحين دار خلافة بعد أن كانت دار امارة » (١) ، وغدت القاهرة - بدل القيروان - مركز هذه الامبراطورية الشاسعة الأرجاء . على أن نقل المعز مقر خلافته من المهديّة الى القاهرة قد أفقد الفاطميين إفريقية (تونس) (٢) . فإن بلكين شيخ صنهاجة من قبائل البربر سرعان ما أعلن استقلاله وأسس الدولة الزيرية فى سنة ٣٦٢ هـ . وجذا حذوه فى ذلك الحمايون فى سنة ٣٩٨ هـ . وفى عهد المستنصر تم استقلال امراء شمال افريقية (سنة ٤٤٠ هـ) ، وخرجت هذه البلاد نهائياً عن سلطان الفاطميين . (٣)

أقام مع المعز فى القصر أولاده وحاشيته وخدمه وعبيده . وكان بالقصر كل ما يحتاج اليه الملوك من مال وعين (٤) وجوهر وحلى وفرش وأوان وثياب وسلاح . وكان جوهر يقيم فى ذلك القصر ، فلما علم بوصول المعز الى الجيزة تركه ولم يحمل معه شيئاً من أثاث القصر الا ما كان عليه من الثياب ، ونزل فى داره بالقاهرة (٥) . وفى اليوم التالى لوصول المعز خرج أشراف مصر وقضاتها وعلمائها ووجوهها لتهنئته والاحتفال بوصوله . جلس المعز فى قصره فى الخامس عشر من شهر رمضان على السرير

(١) المقرئى : اتعاظ الخنفا ص ٨٩

Stanley Lane - Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 39

Stanley Lane - Poole : The Mohammadan Dynasties ,P. 71 (٢)

Stanley Lane - Poole : The Mohommadan Dynasties ,P. 39 (٣)

(٤) العين : مشترك لفظى يطاق على أشياء مختلفة . ولعل المقصود بها هنا النقد وكذا الدنانير المضروبة والغير المضروبة .

(٥) ابن خلكان . ج ١ ص ١٢٠

الذهب الذى صنعه له جوهر فى الايوان الجديد ، ثم اذن المعز بدخول الناس عليه . فدخل الأشراف ، ثم الأولياء ، فسائر وجوه المدينة ، وجوهر قائم بين يديه ، يقدم الناس قوما بعد قوم (١) . ثم قدم جوهر هديته الى مولاه المعز . وكانت - على ما ذكره المقرئى نقلا عن ابن زولاق - مائة وخمسين فرسا مسرجة ملجمة ، وكان من تلك السروج واللجم ما هو موشى بالذهب وما هو مرصع بالجواهر ، وواحد وثلاثون فيه على بخاتى (٢) بالديباج (٣) والمناطق (٤) والفرش ، ومنها تسع نوق محملة بالحرير ، وثلاث وثلاثون بغلة ، منها سبعة مسرجة ملجمة ، ومائة وثلاثون بغلة للنقل ، وتسعون نجيبا (٥) ، وأربعة صناديق مشبكة يرى ما بداخلها من أواني الذهب والفضة ، ومائة سيف محلى بالذهب والفضة . ودرجات من فضة مخرقة فيها جوهر ، وشاسية مرصعة فى غلاف ، وتسعمائة سبط ، وتخت (٦) ، فيها الطرف وكل ما أعده جوهر لمولاه المعز من ذخائر مصر . (٧)

ولما فرغ جوهر من تقديم هديته قام أبو جعفر بن عبيد الله الحسينى وقدم

(١) المقرئى : أعاظ الحنفا ص ٩٠ - ٩١

(٢) البخت نوع من الابل

(٣) ثوب سداه ولحمته ابرسيم (حرير) ويقال هو معرب . ثم كثرحتى اشتقت العرب منه .

(٤) جمع منطق وهو مايشد به الوسط

(٥) النجيب هو الكريم (الأصيل) من الخيل

(٦) وعاء

(٧) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ ، أعاظ الحنفا ص ٩١ ،

هديته الى المعز وهي احد عشر سفظاً من متاع تونة (١) وتنيس (٢) ودمياط، (٣) وخيل وبغال . وقال : « كنت اشتهى ان يلبس منها المعز لدين الله ثوباً أو يتعمم بالعمامة التي فيها ، فما عمل لخليفة قط مثلها » (٤) .

وبعد أن تقبل المعز ما قدم اليه من الهدايا والتحف أذن لجماعة المهنتين بالجلوس في مجلسه ، وأمر باطلاق جميع من اعتقلهم جوهر من الاخشيديين والكافوريين وكانوا نحو الألف .

وفي عيد الفطر ركب المعز الى مصلى القاهرة الذى بناه جوهر فأقبل عليه في موكب ، وجلس خلفه من الجهة اليمنى ابو جعفر مسلم العلوى وصلى المعز بالناس صلاة العيد صلاة تامة طويلة . فقرأ فى الركعة الأولى أم الكتاب وهل أتاك حديث الغاشية ، ثم كبر بعد القراءة وأطال الركوع والسجود ، وكان القاضى النعمان بن محمد يبلغ عنه التكبير . ثم قرأ فى الركعة الثانية أم الكتاب وسورة الضحى ، ثم كبر أيضاً بعد القراءة وهي صلاة جده على بن ابي طالب . وأطال الركوع والسجود فى الثانية ايضاً . قال ابن زولاق قد سبحت

(١) تونة جزيرة قرب تنيس ودمياط .

(٢) تنيس جزيرة بين القرما ودمياط .

(٣) اشتهرت هذه المدن فى ذلك الوقت بصناعة المنسوجات على اخلاف أنواعها حتى كان لها شهرة عالمية فى ذلك المضمار . فقد كان يضرب المثل بثياب تونة ، وكانت تصنع بها كسوة الكعبة أحياناً . كما اشتهر أهل تنيس بعمل الثياب الملونة والفرش النادرة المثال ، وأهل دمياط بصناعة الاقمشة القامونية التى أخذت صناعتها عن بلاد اليونان ، وهى نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلألأ اذا انكسرت عليها أشعة الشمس . وقد ذكر ياقوت عند كلامه على دمياط وتنيس أن حاكى الثياب الرفيعة بهما كانوا من القبط ، وأن أهل دمياط كانوا يستأجرون غرماً فى قبوات على خليج دمياط لعمل الثياب المعروفة بالشرب .

(٤) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ٩١ .

خلفه في كل ركعة وسجدة نيفاً وثلاثين تسيحة . وجهر المعز بسم الله الرحمن الرحيم في كل سورة . ولما فرغ من الصلاة صعد المنبر ومعه القائد جوهر وعمار بن جعفر وشفيع صاحب المظلة . وخطب الناس ، وأبلغ في خطابه حتى ابكاهم ثم انصرف في عساكره (١) . ولما وصل الى قصره دعا الناس لتناول الطعام عنده ، وعاتب من تأخر منهم ، وتهدد من بلغه عنه صيام العيد .

وقد خلع المعز على جوهر في ذلك العيد خلعة مذهبية ، وعمامة وقلده سيفاً ، كما قدم اليه عشرين فرساً مسرجة ملجمة ومنحه خمسين ألف دينار ومائتي ألف درهم . وقد منح المعز جوهر هذه الهدية إعجاباً بما أصابه من النجاح في فتوحه وتقديراً لما قدمه اليه جوهر من تلك الهدية الثمينة التي أتينا على وصفها . ولما فرغ المعز من الاحتفال بعيد الفطر ركب الى القدس ، واشرف على اسطوله ، وقرأ عليه وعوذه ، وخلف عليه جوهر والقاضي النعمان ، ثم عاد الى قصره . (٢) ومن هنا تبين أن جوهر كان لا يزال يتمتع في ذلك الوقت بشيء من النفوذ الذي كان يتمتع به قبل وصول المعز الى مصر .

ظلت مقاليد الأمور في مصر بيد جوهر حتى قدم المعز في سنة ٣٦٢ هـ . وقد استأثر المعز بكل ما كان يتمتع به جوهر من النفوذ . على أن جوهر آ قد بقي بجانب المعز يدله على أحوال البلاد ويشير عليه بما تتطلبه من وجوه الإصلاح .

ولم يذكر لنا التاريخ شيئاً يدل على أن المعز قد حفظ لذلك الفاتح العظيم ما كان له من الأيادي البيضاء على الدولة الفاطمية ، وما قام به من فتح مصر والشام وفلسطين وتثبيت دعائم الفاطميين فيها ونشر الدعوة لهم بها ، وصد

(١) المقرئى: اتعاظ الخنفا ص ٩١

(٢) المقرئى: اتعاظ الخنفا ص ٩١

غارات القرامطة عن مصر ، تلك الغارات التي كادت تقضى على الدولة الفاطمية الناشئة . وكل ما حفظه لنا التاريخ ان المعز — على الرغم مما جباه به من العطف وأولاه من الثقة وحسن التقدير — قد أقصاه عن مناصب الدولة الكبيرة كالخراج والحسبة والسواحل والأعشار والجوالي والاحباس والمواريث والشرطتين وغيرها ، وقلدها يعقوب بن كلس وعسلوج ابن الحسن .

وهكذا نرى جوهرًا يتوارى قليلا قليلا عن مسرح السياسة المصرية ولم يعد الى الظهور إلا أواخر سنة ٣٦٤ هـ ، حين تفاقم خطر اقتكين والحسن ابن أحمد القرمطي واستعصى على المعز وقواد جيشه كبح جماحهما ، فلجأ إلى جوهر وولاه قيادة جيوشه . ولم يكن جوهر في تلك المدة أقل إخلاصاً وولاء لمولاه المعز ثم لابنه العزيز من بعده عما كان عليه من قبل ، وكان ذلك آخر عهد جوهر بالشؤون العامة في مصر .

وهنا نتساءل عن السبب في موقف المعز إزاء هذا القائد العظيم والفتاح الكبير وإقصائه إياه عن المناصب الهامة في تلك البلاد التي تم فتحها على يده . ولعل المعز قد سلك مع جوهر ماسلكه غيره من الخلفاء قبله مع عظماء قوادهم من مؤسسي الدول وذوى الشخصيات البارزة . وذلك لما كانوا يخشونه على نفوذهم ان ينتقل إلى هؤلاء . ولن تعموزنا المثل للتدليل على صحة هذا القول . فقد قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني الذي قامت على أكتافه الدولة العباسية ، وكذلك فتك عبيد الله المهدي بأبي عبد الله الشيعي بعد ان انتشرت على يده الدعوة الشيعية وتأسست الدولة الفاطمية في بلاد المغرب . على أن جوهرًا — وان جازاه المعز على فتوحه جزاء سنهار — فقد كان أحسن حالا من غيره من القواد الفاتحين ، كأبي مسلم وأبي عبد الله الشيعي .

الفصل الثاني

تثبيت سلطان الفاطميين في سورية

قد ذكرنا كيف تفاقم خطر افتككين والقرامطة في الشام واستعصى أمرهما على الخليفة المعز . والآن نبين كيف تم القضاء على افتككين والحسن زعيم القرامطة ، وكيف عادت بلاد الشام الى سلطان الفاطميين .
توفي المعز في ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ (سنة ٩٧٥ م) وتولى الخلافة من بعده ابنه العزيز . فكتب الى افتككين يستميله إليه ويعدده حسن المكافأة اذا جلا عن دمشق . فرد عليه افتككين برد جاف جاء فيه « هذا بلد أخذته بالسيف وما أدين فيه لأحد بطاعة ولا أقبل منه أمرا » (١)

وقد استاء العزيز من ذلك الكتاب ، وحنق على افتككين واستشار وزيره يعقوب بن كلس في الأمر ، فأشار عليه بتولية جوهر قيادة جيش يزحف على دمشق ويهاجم افتككين لأخراجه منها عنوة . فوجد العزيز في جوهر رجل الساعة الذي يعتمد عليه ويركن إليه في استقرار الأمور في بلاد الشام وتثبيت الفتح الفاطمي بها ، كما اعتمد عليه المعز في فتح مصر بعد أن استعصى على غيره من الخلفاء والقواد . وكان جوهر عند ظن العزيز به .
سار جوهر سنة ٣٦٦ على رأس جيش عظيم لقتال افتككين والقرامطة . فلما علم القرامطة بذلك وهم في الرملة فروا الى الاحساء . فدخلها جوهر واحتلها .

ولما علم افتككين بمسير جوهر الى دمشق واحتلاله الرملة ، استثار حماس أهل دمشق بتلك الخطبة التي تنقلها بنصها عن ابن القلانسي (١) : « قد علمتم اني لم أتوسطكم ، وأتولى تدبيركم الا عن رأيكم ومرادكم ، وقد طلبني

من هذا السلطان مالا طاقة لي به . وأنا منصرف عنكم وداخل الى بلاد الروم ، وعامل على طلب موضع أكون فيه ، واستمد ما أحتاج إليه منه ، لئلا يلحقكم بقصد من يقصدكم ، ما يثقل به الوطأة عليكم ، وتصل به المضرة إليكم » .

ويظهر أن أفتكين قد أفلح في سياسته . فقد جدد أهل الشام ثقتهم به . يدل على ذلك ما جاء في ردهم على خطبته من تلك العبارة « أما اخترناك لسياستنا ورياستنا ، على أن نمكنك من تركنا ومفارقتنا أو نألوك جهداً من نفوسنا ومساعدتنا ؟ ونفوسنا دونك وبين يديك في المدافعة عنك » .

وكان بيد جوهر أمان من مولاه العزيز لأفتكين ، وخاتماً ، ودستا من ثيابه ، وكتاباً بالعفو عنه لما فرط منه . فلما وصل جوهر إلى الرملة كتب إلى أفتكين في لين ورفق ، وذكر له ما كتبه له العزيز من الأمان وما أعده له من الهدايا ، وأشار عليه بترك الفتنة حتى يعود الأمان إلى نصابه . فكتب إليه أفتكين يشكر له حسن سعيه لدى العزيز ، واعتذر بعدم قبول أهل دمشق ما جاء في كتابه . ثم سار أفتكين من عكا إلى طبرية حيث انضم إلى القرامطة واستعد للقاء جوهر وجمع الألقوات من بلاد حوران والبثينة ، ثم دخل دمشق وتحصن فيها .

ترك جوهر دمشق في ٢٢ ذى الحجة سنة ٣٦٦ هـ فبنى سوراً يضم عسكره وجفر خندقاً كبيراً . ثم جمع أفتكين الجند للقتال ، ووقعت منه وبين جوهر حروب طويلة دارت فيها الدائرة على أفتكين في ١١ ربيع الأول سنة ٣٦٦ هـ ، رغم ما أبداه من شجاعة نادرة كانت موضع إعجاب أهل دمشق . وقد عرض عليه أهل الشام أن يكتب إلى الحسن القرمطي يطلب منه السير إليه ومعاونته على قتال المغاربة . فلى الحسن طلب أفتكين وسار إلى دمشق . ولا شك أن جوهر لم ينس مصير جعفر في حربه مع القرامطة سنة ٣٦٠ هـ . فطلب جوهر الصلح على أن يجازوا عن دمشق ، ولا سيما حين رأى أن

موارده قد نصبت وأن المؤونة قد أعوزته ، وهلك معظم جنده . وهذا يفسر لنا قوة القرامطة ونفوذهم ونظامهم في الحروب ، حتى إن مجرد نبأ سيرهم كان كافياً لتراجع قائد عظيم كجوهر واسراعه الى طلب الصلح .

أجاب أفتكين جوهرًا الى طلبه . فرحل هذا عن دمشق في ٣ جمادى الاولى سنة ٣٦٦ هـ ، وجد في المسير لاقترب القرامطة منها ، ثم ذهب الى طبرية . فلما بلغ ذلك الحسن بن أحمد زعيم القرامطة سار اليه ، بعد أن رحل جوهر عنها الى الرملة . فبعث الحسن سرية لقتاله ووقعت بين الفريقين موقعة قتل فيها كثير من العرب . ثم ذهب اليه الحسن وتبعه أفتكين لقتال جوهر (١) . وانضم اليهما من أهل الشام أكثر من خمسين ألفاً ، ونزلوا بنهر الطواحين على بعد ثلاثة فراسخ من دمشق ؛ وكان المورد الوحيد للماء في هذه الناحية .

فلما رأى جوهر أن أفتكين قد أخذ عليه الماء ، وأنه لم يكن أمامه إلا ماء الأمطار التي كان يجمعها في الصحاريج بما لا يكفي جنده الكشيف ، كتب الى العزيز يخبره أنه لا يستطيع البقاء في هذا المكان وأنه لا قبل له بمقاومة جيوش أفتكين والقرامطة ، وطلب اليه أن يأذن له بالتوجه الى عسقلان اذا دعت الحال . فأذن له العزيز بذلك ، فأدلى جوهر اليها ووصل اليها في آخر الليل . فتبعه أفتكين والحسن القرمطي ، وحاصراه فيها ، حتى ندرت المؤن ،

(١) ذكر المقرئ : (الخطط ج ٢ ص ٩) أن الحسن القرمطي توفي بالرملة سنة ٣٦٦ هـ وقام بأمر القرامطة من بعد ابن عمه جعفر ، فأفسد علاقات المودة بين أفتكين والقرامطة . بينما يقول ابن القلانسي إن الحسن ظل يناصب الفاطميين العداء ويشير القلاقل والفتن في سورية حتى سنة ٣٦٨ هـ ، حيث هرب من ميدان القتال بعد أن هزمه العزيز . ونحن نرجح ما ذكره ابن القلانسي ؛ فقد نصب نفسه لجمع تاريخ دمشق دون غيرها من البلدان . هذا الى أنه قد سبق المقرئ بنحو ثلاثة قرون ؛ فقد توفي سنة ٥٥٥ هـ ، بينما توفي المقرئ سنة ٨٤٥ هـ .

وعزت الآقوات فارتفعت الأسعار ونزل بالآهلين ضيق شديد . وكان الوقت شتاء لا يسهل معه حمل المؤن الى جوهر فى البحر . واشتدت الحال حتى أكل المغاربة الدواب الميتة ، وابتاعوا الخبز كل خمسة أرطال شامية بدينار معزى . (١)

ولاشك أنه كان لشجاعة جوهر وبُعد نظره الفضل فى الخلاص من هذا المأزق الحرج ، فى الوقت الذى كادت جيوشه تقع فريسة لجيوش افتكين والحسن القرمطى . فقد عمل على القضاء على ذلك التحالف المتين الذى كان يربط القرامطة بأفتكين والذى كان الغرض الأول منه القضاء على سلطان الفاطميين فى بلاد الشام واتزاعها من أيديهم .

أراد جوهر أن يضل باللين والدهاء ما عجز عن الوصول اليه عن طريق الحرب والقتال . فلا عجب إذا رأيناه يكتب الى افتكين يطلب اليه المهادنة واحلال الوثام والصفاء محل المشاحنة والبغضاء ، ثم يبعث اليه الرسل يطلبون منه الاجتماع به . حتى إذا ماتم هذا الاجتماع رأينا جوهرأ يصل الى غايته بفضل ما وهبه الله من الدهاء والحزم . وقد مهر جوهر فى هذه السياسة مهارة كبيرة . فأتى افتكين من ناحية الدين وطلب اليه حقن دماء المسلمين والعمل على اخمد نار الفتنة ، بينما كان يعمل فى الوقت نفسه على التفرقة بين افتكين والحسن القرمطى . حتى اذا ما نجح بعض النجاح فى فصر عرى التحالف القائم بينهما ، استطاع فى النهاية أن يقضى عليهما جميعا .

وقد ذكر ابن القلانسى (٢) أن جوهرأ قال لأفتكين حين اجتمع به : « قد علمت ما يجمعنى وإياك من حرمة الاسلام وحرمة الدين . وهذه فتنة قد طالت ، وأريق فيها الدماء ، ونحن المآخذون بها عند الله . وقد دعوتك

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦ - ١٧

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ١٧

الى الصلح والمواعدة والدخول في السلم والطاعة ، وبذلت لك كل اقتراح وإرادة وإحسان وولاية . فأبيت الا القبول من يشب نار الفتنة ويستتر عنك وجه النصيحة . فراقب الله تعالى وراجع نفسك ، وغلب رأيك على هوى غيرك » . فأجابه أفتكين : « أنا والله واثق بك وبصحة الرأي والمشورة منك . لكنني غير متمكن مما تدعوني اليه ، ولا يرضى القرمطي بدخوله فيه معي » . فرد جوهر عليه : « إذا كان الرأي والأمر على ذلك ، فاني أصدقك على أمري ، تعويلا على الأمانة وما أجده من الفتوة عندك . فقد ضاق الأمر وامتنع الصبر ، وأريد أن تمن عليّ بنفسي وبهؤلاء المسلمين الذين معي وعندي ، وتدم لي لأمضي وأعود الى صاحبي شاكرآ . وتكون قد جمعت بين حقن الدماء واصطناع المعروف ، وعقدت عليّ وعلى صاحبي منة تحسن الأحدوثة فيها ، وربما أملت المقابلة لك عنها » . فقال أفتكين : « افعل وأمنّ على أن أعلق سيفي وريح الحسن بن أحمد على باب عسقلان ، وتخرج أنت وأصحابك من تحتها » . فرضى جوهر بذلك وتعاهدا ، وأخذ ختم أفتكين رهينة على الوفاء بذلك . وافترق القائدان فعاد أفتكين الى عسكره ، ورجع جوهر الى عسقلان ، ثم أرسل جوهر الى أفتكين الهدايا والطرف . وقد بعث أفتكين الى الحسن القرمطي يعلمه بما كان بينه وبين جوهر . فذهب الحسن اليه وقال له : « لقد أخطأت فيما فعلته وبذلته ، وجوهر هذا ذو رأي وحزم ودهاء ومكر ؛ وقد استقلك بما عقده معك . وسيرجع الى صاحبه ويحمله على قصدنا ، ثم لا يكون لنا به طاقة ، فيأخذنا . ومن الصواب أن ترجع عن ذلك ، حتى يهلك هو وأصحابه جوعا ، ونأخذهم بالسيف » . فتمسك أفتكين بما عاهد جوهرآ عليه وقال : « قد عاهدته وحلفت له ، وما استجيز الغدر به » . وقد علق السيف والريح ، فخرج جوهر وأصحابه من تحتها (١) .

ولا شك أن جوهرًا لم يكن يجهل المثل المأثور « الغاية تبرر الوسطة ». فقد رضى أن يمُرَّ هو وجنده تحت سيف أفتكين وريح الحسن القرمطى ، فى الوقت الذى كان يعلم فيه أن ذلك الحل فيه شىء غير قليل من المذلة والمهانة بالنسبة إليه وإلى الفاطميين . بيد أن جوهرًا كان يزن عواقب الأمور ويعرف كيف يتلافى الخطر قبل وقوعه ، ومن ثم استطاع أن يخرج من هذه الحروب سالمًا ظافرًا .

على أن جوهرًا إنما قصد من ذلك أن يكسب الوقت ، حتى إذا ما أتت له الفرصة ضرب أفتكين والقرامطة جميعاً . ولم يكن الحسن القرمطى يغفل عن هذه الحقيقة حين أخبره أفتكين بما تم بينه وبين جوهر ، تلك الحقيقة التى تبيينها من قول القرمطى : « وجوهر هذا ذوى رأى وحزم ودهاء ومكر ، وقد استقلت بما عقده معك وسيرجع إلى صاحبه ، ويحمله على قصدنا ، ثم لا يكون لنا به طاقة » . والفضل ما شهدت به الأعداء .

وصل جوهر إلى مصر ودخل على العزيز بالله ، وشرح له حقيقة الحال فى بلاد الشام . واستفحال أمر أفتكين ومن معه . فقال له « ما رأى ؟ » قال : « ان كنت تريدكم ، فأخرج بنفسك إليهم وإلا فإنهم واردون على أثرى » . فأمر العزيز بأعداد العدة ، وأخرج على رأس جيش كبير مزود بالموثون والذخائر ، وجوهر على مقدمته .

فلما علم أفتكين والحسن القرمطى بما عقد العزيز العزم عليه ، عادا إلى الرملة حيث تلاقى الجيشان ، وحمل وطيس القتال (١) ، « وجال أفتكين بين الصفين يكر ويحمل ويطعن ويضرب » . فقال العزيز لجوهر « أرنى أفتكين » فأشار إليه « وهو يطعن تارة بالرمح ويضرب أخرى بالسيف ، والناس يتحامونه ويتقونه » . فأعجب العزيز ما رأى من فروسيته وشجاعته . ثم وقف العزيز ، وأنفذ إليه رجلاً من عنده يقال له نميرة ، وقال له : قل

« يا أفتكين أنا العزيز وقد أزعجتني عن سرير ملكي ، واخرجتني لمباشرة الحرب بنفسى ، وأنا مساحك بجميع ذلك ، وصافح لك عنه ؛ فاترك ما أنت عليه ولد بالعفو منى . فلك عهد الله وميثاقه ، انى أوئمنك وأصطفيك ، وأنوه باسمك . . . ، وأهب لك الشام وأتركه فى يدك » . (١)

مضى نميرة الى أفتكين وبلغه رسالة العزيز . فخرج أفتكين بحيث يراه الناس ، وترجل ، وقبل الأرض مراراً ومرغ خديه عليها معفراً وقال : « قل لأمير المؤمنين لو تقدم هذا القول منك لسارعت اليه ، وأطعت أمرك ؛ فأما الآن فليس الا ماترى » . وعاد نميرة ونقل الى العزيز ماسمع ، فقال له : « ارجع اليه وقل له يقرب منى ، بحيث أراه ويرانى . فان استحققت أن يضرب بالسيف فليفعل » . فمضى نميرة وأبلغه ذلك فقال : « ما كنت الذى أشاهد طلعة أمير المؤمنين وأنا بذه الحرب ، وقد خرج الأمر عن يدى » . ثم حمل على ميسرة الفاطميين ، فهزمها وقتل كثيراً من رجالها . وشاهد ذلك العزيز بعينى رأسه فحمل بميمنة جيشه والمظلة على رأسه ، فهزم أفتكين والقرمطى فى يوم الخميس ٢٣ المحرم سنة ٣٦٨ هـ وأعمل السيف فى جيشهما وقتل من جندهما نحو عشرين ألف رجل . وفر الحسن القرمطى هارباً راضياً من الغنيمة بالاياب .

وبذلك قضى العزيز على رأس تلك الفتنة بعد أن كادت تقوض دعائم الدولة الفاطمية الفتية . وفر أفتكين على فرس له ، فقبض عليه بعض العرب بعد أن بذل العزيز لمن يحبىء به مائة ألف دينار ، وأرسلوه إلى العزيز ، فأمر أن يُشهرَّ به فطيف على جمل « فأخذ الناس يلطمون ، ويهزون لحيته ، حتى رأى فى نفسه العبر » .

سار العزيز ومن معه من الأسرى إلى القاهرة . فاحسن الخليفة اليهم ؛

وأمنهم وكسأهم ، وأسند إليهم الأعمال التي كانوا يلونها أيام أفتكين . أما أفتكين فقد خرج جنود الفاطميين لاستقباله ، ولم يشك أحد في أنه مقتول لا محالة . وهنا تظهر صفات العزيز النادرة ، وحبّه للعفو عند المقدرة مع رجل دوتخ الفاطميين وكاد يقضى على دولتهم وهى فى عنفوان قوتها وكامل قنوتها . على أنه كان لجوهر أثر كبير فى ذلك العفو بالرغم مما أنزله أفتكين به وبجنده ، فطالما عمل على تلطيف مزاج مولاه العزيز وتهديئة نفسه الشائرة ضد ذلك العدو الذى أقلق باله وعكر صفو حياته وجعل دولته قاب قوسين أو أدنى من الزوال .

ويحدثنا ابن القلانسي أن أفتكين لما دخل على العزيز فى سرادقه ترجل عن دابته وقبل الأرض بين يديه ، وُحِّل إلى دست قد نصب له ليجلس عليه . فلم يكن من أفتكين ، ازاء الحفاوة به وبرجاله ، الا أن رمى بنفسه إلى الأرض وألقى ما على رأسه وبكى بكاء أشديدا سمع الحاضرون نشيجه وقال : « ما استحققت الابقاء على ، فضلا عن العفو الكريم والاحسان الجسيم . . . » . وامتنع من الجلوس فى الدست وقعد بين يدي العزيز . وقد ألبسه جوهر على أثر وصوله من ملابس العزيز وهدأ روعه . فجدد الدعاء وتقبيل الأرض وشكر جوهر على ما أظهره نحوه من كرم ونبل .

وقد بالغ العزيز فى إكرام أفتكين ، فأسكنه داراً فسيحة ، وأغدق عليه صلاته وعطاياه . وظل أفتكين ممتاعاً بنعم العزيز حتى مات فى سنة ٣٧٢ هـ . وقد اتهم يعقوب بن كلس وزير العزيز بقتله بالسهم لترفع أفتكين عنه ، فأمر به العزيز فحبسه مدة حنقا منه عليه ثم أطلقه .

وهكذا توطد سلطان الفاطميين فى سورية ، فأصبحت ولاية فاطمية حاضرتها دمشق . وظلت على ذلك إلى أواخر عهد الدولة الفاطمية ، حيث استقل محمود نور الدين بن زنكى بدمشق واستولى الصليبيون على معظم أرجاء فلسطين ، ثم أصبحت بعد ذلك جزءاً من أملاك الدولة الأيوبية .

خاتمة القول في جوهر

الى هنا انتهى بنا البحث في حياة جوهر ، ذلك الكتاب الكبير والقائد المحنك والسياسى الخطير . وقد اختلف علماء الاجتماع في عظماء الرجال وذهبوا فيهم مذاهب شتى . فمنهم من يرى ان الرجل العظيم هو الذى يخلق الظروف ويرغم الحوادث على السير طوع ارادته ، ويضطرها الى المضى فى الطريق الذى يشقه لها ، ومنهم من يرى ان الرجل العظيم هو ابن الساعة ووليد الظروف ، تخلقه الأيام وتنشئه الحوادث وتتهى له من الفرص ما لا تهى لغيره وتخلع عليه من مظاهر العظمة ما تصن به على سواه .

وقد اجتمع فى جوهر الرايان جميعاً . فانا لو نظرنا نظرة اجمالية الى حياة هذا القائد رأينا أن عناصر عظمتة هى مزيج من الحظ المواتى والكفاءة الشخصية النادرة .

ولا غرو فقد كان لجوهر من المواهب ، التى طالما أملت إرادتها على الأيام وفرضت رأيها على الحوادث ، ما يجعل منه قائداً موقفاً وسياسياً حكيماً . الا أن هذا وحده لا يكفى ، لو لم تتح له الظروف الاتصال بالمعز وهو لا يزال ببلاد المغرب ، فيؤليه ثقته ويؤليه امرة جنده وقيادة جيشه لاتمام فتح ما بقى من بلاد المغرب واخضاعها لسلطان الفاطميين . وهنا تظهر مواهبه النادرة وقوة شكيمته . فقد أخضع بلاد المغرب كلها لسلطان المعز فى أقل من سنة . وهكذا تكاثفت ظروف الرجل ومواهبه فى وضع الحجر الأساسى لمجده .

ولم تقف ثقة المعز بجوهر عند هذا الحد ، فقد جعله على رأس الحملة التى وجهها لفتح مصر ونشر الدعوة الشيعية بالمشرق ، بعد أن فشل فى ذلك من سبقه من القواد الفاطميين . على أن حظ جوهر فى مصر لم يكن أقل منه فى بلاد المغرب . فقد سادتها الفوضى وعم فيها الاضطراب عقب وفاة

كافور . وبلغت الدولة العباسية درجة كبيرة من الضعف والانحلال عجزت معها عن ارسال الجنود اصدا الأعداء عنها كما فعلت من قبل . وعلى الرغم من وقوف المعز على حقيقة الحال في مصر وما كانت عليه من ضعف ، فقد رأى أن فتحها يحتاج الى عقل راجح وقيادة حكيمة . فاختار جوهرأ بعد أن خبره كاتباً ووزيراً وقائداً تفتح له البلدان المنيعه في بلاد المغرب أبوابها . وكان جوهر عند ظن الخليفة به ، قم على يده فتح مصر واتخذها الفاطميون قاعدة لخلافتهم . وكان لمهارة جوهر وحسن سياسته أثر كبير في استتباب الأمن وتأليف قلوب الأهلين بالرغم من بغضهم للمذهب الشيعي ، مذهب الفاطميين .

وقد نفذ جوهر السياسة الفاطمية التي كانت ترمي الى اتخاذ مصر جسراً يعبر عليه الفاطميون الى المشرق لتأسيس خلافة فاطمية شاسعة الأرجاء . وكان اختيار المعز جوهرأ لتنفيذ تلك السياسة اختياراً موفقاً . فان سلطة الفاطميين لم تتوطد في بلاد الشام وفلسطين حتى خرج اليهم جوهر بنفسه بعد أن أخفق في ذلك جعفر بن فلاح ، وانفض الناس من حوله ، وتخاذل عنه الجند وخر صريعاً في ميدان القتال ، لما كان يعوزه من الحزم وبعد النظر وحسن السياسة ، تلك الصفات التي امتاز بها جوهر .

وقد ساعد الحظ جوهرأ ، ففضى على القرامطة وردهم عن مصر مهزومين مدحورين ؛ وطالما تاقوا للاغارة عليها وفتحها ، كما أغاروا على غيرها من بلدان المشرق . ولولا قوة جوهر ومهارته الحربية لثم للقرامطة ما أرادوا وأزالوا سلطان الفاطميين في مصر ، ولما تتوطدت دعائمه فيها .

ولا زالت آثار جوهر في مصر تنطق بأيدى هذا القائد العظيم والفتاح الكبير . فهو منشئ القاهرة ، تلك العاصمة التي لم تلبث أن بذت غيرها من العواصم الاسلامية ، وأصبحت منار الحضارة الاسلامية التي أنبسط نورها على الآفاق . فقد فاقت القاهرة بغداد عاصمة الخلافة العباسية وقرطبة حاضرة

الأمويين في الأندلس ، وأصبحت مركز العلوم والفنون والآداب ، وكعبة العلماء ، ومحط رحال الشعراء والكتّاب . ناهيك ما ذكره ناصري خسرو ، ذلك الرحالة الفارسي الذي طاف جميع البلدان الشرقية وشاهد بنفسه ما وصلت إليه من المدنية والحضارة ووقف على ما بلغته من العلم والفن ، فقد قال في كتابه «سفرنامه» ان القاهرة قد سبقت في عهد الفاطميين هذه البلاد جميعا في كل ناحية من نواحي الحياة .

ومما يدل على حنكة جوهر وعلو كعبه في السياسة ، أنه لم يلجأ إلى وسائل الشدة والعنف في نشر المذهب الفاطمي وإنما لجأ إلى الوسائل السلمية . فاعتمد على المساجد التي اتخذها أشبه بمدارس يتلقى فيها الأهل إلى تعاليم هذا المذهب ، دون أن يفرض على أحد اعتناقه . فقد أنشأ الجامع الأزهر ليكون مركزاً لتدريس تعاليم المذهب الفاطمي حتى لا يضايق المصريين السنين في شعورهم الديني في المساجد الأخرى . وعلى الرغم من دراسة هذا المذهب فيما عدا الأزهر من المساجد ، فإن التاريخ لم يذكر لنا ان الناس كانوا يساقون لتلقى تعاليم هذا المذهب كرها . بيد أن هذا التسامح لم يصرف جوهر عن الغرض الأول من سياسة الفاطميين ، وهو تعميم هذا المذهب بين المصريين . فقد لجأ في جذبهم إليه إلى الوسائل المادية ، وذلك باسناد مناصب الدولة الهامة إلى معتنقي هذا المذهب مصريين كانوا أو مغاربة .

وكان جوهر أحسن مثل للحاكم العادل ، فقد كان يجلس للمظالم بنفسه ، فيقضي بين الناس بالعدل ويرد الحقوق إلى أصحابها ، ويصرب على أيدي المعتدين والعابثين بالنظام والأمن ، ولو كانوا من خاصته وخلصائه . فقد ضرب على أيدي الجند المغاربة ومنعهم من التعدي على الأهلين ، حتى كان يعاقب المعتدين منهم بالقتل جزاء لهم وردعا لغيرهم . فكان مثله في ذلك مثل عمرو بن العاص وأحمد بن طولون ومحمد بن طنجج الاخشيذ وصالح الدين الايوبي وغيرهم من خيرة الأمراء وكبار الساسة الذين تولوا الحكم في مصر في العصر الاسلامي .

ولا شك أن جوهرًا يعتبر مؤسس الحضارة الفاطمية في مصر خاصة والشرق عامة . وكان مولاه المعز يثق به ثقة لا حد لها . فقد ترك له ولاية مصر أربع سنوات لم يفكر خلالها في الحضور إليها وتسلم مقاليد الحكم فيها ، حتى ألح عليه جوهر في ذلك ، مما يدل على أن المعز كان يرى في جوهر الجدارة بالاضطلاع بحكم مصر وإدارة شئونها .

على أن نفوذ جوهر لم يلبث أن تضائل على أثر قدوم المعز إلى مصر ، فأفل نجمه ودالت دولته . وهذا أمر طبيعي . فقد عرف المصريون جوهرًا وأحبوه ودانوا له بالطاعة وأصبح ذا شخصية بارزة ونفوذ قوى . فلو أشركه معه المعز في حكم هذه البلاد لسقطت هيبة الخليفة الفاطمي وتلاشى سلطانه . لذلك لا نعجب إذا صرف جوهر عن الأعمال العامة عقب وصول المعز ، فلم يعد إلى الظهور إلا في فتوح سورية في عهد العزيز حين اشتد خطر القرامطة وأفتككين . وكان ذلك آخر عهد جوهر بأعمال الدولة . فانه بعد أن وطد سلطان الفاطميين في سورية وعاد إلى مصر سنة ٣٦٨ هـ ، أهمله العزيز كما أهمله المعز من قبل ، فلزم داره وأصبح نسيا منسيا .

وقد أحفظ جوهرًا إهمال المعز والعزيز له ونال من نفسه عدم تقديرهما ما كان له من الأيادي في توطيد سلطان الفاطميين . فقد ذكر المقرئ (١) أن منجوتكين (٢) التركي خرج من قصر العزيز سنة ٣٨١ هـ وهو ممتط جواده ، وفي حاشيته القائد جوهر وابن عمار وغيرهما من رجالات الدولة

(١) الخطط ج ١ ص ٣٧٩

(٢) حدث جوهرًا بأعمار انه لما وصل المعز إلى مصر عرض عليه الأسرى ، وكان من بينهم منجوتكين هذا ، وكان لا يزال غلامًا . فلما رآه المعز نظر إليه وتأمله . فلما انتهى جوهر من عرض الأسرى قال للمعز « يامولانا ! قد فعلت لما رأيت هذا التركي ما لم تفعله مع من تقدمه . » فقال « يا جوهر ! سوف ترى أنه يكون لبعض ولدنا غلام من هذا الجنس تتم على يده فتوحات عظيمة » . ثم قال جوهر لابن عمار : « وأنا أظن أن ذلك الغلام هو الذي كان يعنيه مولانا المعز »

مشاة . وكانت يد جوهر في يد ابن عمار . فتنهد ابن عمار وزفر زفرة كاد ينشق لها صدره وقال : « لاحول ولا قوة إلا بالله ! » فنزع جوهر يده منه وقال . « قد كنت عندي يا أبا عمار أثبت من هذا لكل زمان دولة ورجال . أتريد نحن أن نأخذ دولتنا ودولة غيرنا ؟ لقد أرجل لي مولانا المعز لما سرت الى مصر أولاده واخوته وولى عهده وسائر أهل دولته ، فتعجب الناس من ذلك . وها أنا اليوم أمشي راجلا بين يدي منجوتكين . أعزونا وأعزوا بنا غيرنا . وبعد هذا أقول اللهم قرب أجلى وموتى ، فقد أنفت على الثمانين » .

وفي تلك السنة اعتل جوهر فعاده العزيز بالله ، وأرسل إليه خمسة آلاف دينار ، ثم بعث إليه الأمير منصور بن العزيز خمسة آلاف دينار أخرى . وتوفي جوهر في يوم الاثنين ٢٣ ذى القعدة سنة ٣٨١ هـ . فبعث إليه بالحنوط والكفن الخليفة العزيز وابنه المنصور أبو علي ، الذى ولى الخلافة بعد أبيه وتلقب بالحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ) . وكفن جوهر في سبعين ثوبا مابين مثقل وموشى بالذهب ، ثم صلى عليه العزيز بالله ، ودفن بالقرافة الكبرى ، على ماذهب إليه ابن إياس (١) . وخلع العزيز على ابنه

(١) ج ١ ص ٥١

انفرد ابن إياس بذكر الموضع الذى دفن فيه جوهر . فلم يذكر لنا ذلك غيره من المؤرخين كابن الريات فى كتابه «الكواكب السيادة فى ترتيب الزيادة» والسخاوى فى كتابه «تحفة الأُحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات» ، وهما من أهم المصادر التى يمكن الرجوع إليها فى معرفة الأماكن التى دفن بها مشاهير رجال التاريخ . وكذلك المقرئى التى عني باستقصاء كل مايتعلق بالفاطميين وأبو المحاسن والسيوطى وغيرهم من مؤرخى مصر الاسلامية .

أما المقبرة التى لاتزال بالجهة الشمالية للأزهر الى اليوم ، والتى يزعم بعض الناس أن جوهر الصقلي دفن فيها ، فهى مقبرة جوهر القنقبائى من أمراء المهاليك ، واليه

الحسين بن جوهر وجعله في رتبة أبيه ، ولقبه بالقائد بن القائد ، ومكنه من جميع ما خلفه أبوه . ولم يزل محل عطف العزيز ورعايته حتى ولى الحاكم بأمر الله ، فقلده البريد والانشاء سنة ٣٨٦ هـ (سنة ٩٩٠ م) ورد إليه النظر في أمور الرعية وتدبير أمور الدولة (١) .

هكذا انتهت حياة جوهر ، ذلك الكاتب العظيم والقائد المحنك والسياسي الماهر . فطويت بموته صفحة من صفحات المجد والعظمة . ولقد كان جوهر عاقلا عادلا ، محسنا الى الناس . لهذا لانعجب اذا حزنوا لوفاته ، فراثه الشعراء على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم ، حتى لم يبق بمصر شاعر إلا رثاه وشاد بأدبه الجم وعلمه الغريز وشخصيته الكبيرة وصفاته العالية ومواهبه النادرة .

فرحم الله جوهر ا فان مثله في الرجال قليل .

تنسب مدرسة الجوهريّة (الخطط التوفيقية : ج ٤ ص ٢٠ نقلا عن الضوء اللامع للسخاوي)

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ١٤ - ١٥

مصادر الرسالة

تنقسم أهم المصادر التي رجعنا إليها في رسالتنا الى قسمين : عربية وفرنجية .
ومن المصادر الافرنجية : الانجليزى والفرنسى

(١) المصادر العربية

- ١ — ابن الأثير (+ ٦٣٠ هـ و ١٢٣٨ م) : على بن احمد بن أبى الكرم
« الكامل فى التاريخ » ١٢ جزء (بولاق ١٢٧٤ هـ)
- ٢ — ابن إياس (+ ٩٣٠ هـ و ١٥٢٣ م) : ابو البركات محمد بن احمد
« بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ٣ أجزاء (بولاق
سنة ١٣١١ هـ)
- ٣ — البكرى (+ ٤٨٧ هـ و ١٠٩٧ م) : ابو عبيد الله عبد الله بن
عبد العزيز « كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب
(باريس سنة ١٩١١)
- ٤ — ابن خلكان (+ ٦٨١ هـ و ١٢٨١ م) : شمس الدين ابو
العباس احمد بن ابراهيم بن أبى بكر الشافعى : « وفيات الأعيان
جزءان (القاهرة سنة ١٣١٠ هـ)
- ٥ — ابن دقاق (+ ٨٠٩ هـ و ١٤٠٦ م) : ابراهيم بن محمد المصرى
« الاتصار لواسطة عقد الأمصار » : جزء ٤ و ٥ (بولاق
سنة ١٣١٤ هـ)
- ٦ — ابن سعيد (+ ٦٧٣ هـ و ١٢٧٥ م) : على بن موسى المغربى
« كتاب المغرب فى حلى المغرب » (لندن سنة ١٨٩٨ م)
- ٧ — السيرطى (+ ٩١١ هـ و ١٥٠٥ م) : عبد الرحمن بن أبى بكر
جمال الدين « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » جزءان
(القاهرة سنة ١٣٢٧ هـ)
- ٨ — الشهرستانى (+ ٥٤٨ هـ و ١١٥٣ م) : ابو الفتح محمد بن

- عبد الكريم « الملل والنحل » ٥ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٧ هـ)
- ٩ — الطبرى (+ ٣١٠ هـ و ٩٢٢ م) : أبو جعفر محمد بن جرير
« تاريخ الأمم والملوك » ٧ أجزاء (لندن سنة ١٨٨١ م)
- ١٠ — الدكتور حسن ابراهيم حسن
« الفاطميون في مصر » (القاهرة سنة ١٩٣٢ م)
- ١١ — أبو الفداء (+ ٧٣٢ هـ و ١٣٣١ م) : اسماعيل بن علي عماد
الدين صاحب حماة « المختصر في أخبار البشر » ٤ أجزاء
(القسطنطينية سنة ١٢٨٦ هـ)
- ١٢ — ابن القلانسي (+ ٥٥٥ هـ و ١١٦٠ م) : أبو يعلى حمزه
« ذيل تاريخ دمشق » (بيروت سنة ١٩٠٨ م)
- ١٣ — القلقشندي (+ ٨٢١ هـ و ١٤١٨ م) : أبو العباس احمد . « صبح
الاعشى في صناعة الانشا » ١٤ جزء (القاهرة سنة ١٩١٤)
- ١٤ — الكندي (+ ٣٥٠ هـ و ٩٦١ م) : أبو عمر محمد بن يوسف
« كتاب الولاة وكتاب القضاة » (طبعت Ruvon Guest
سنة ١٩١٢)
- ١٥ — الماوردي (+ ٤٥٠ هـ و ١٠٥٨ م) : أبو الحسن علي
ابن محمد بن حبيب المصري
« الأحكام السلطانية » (القاهرة سنة ١٢٩٨ هـ)
- ١٦ — أبو المحاسن (+ ٨٧٤ هـ و ١٤٦٩ م) : جمال الدين بن
يوسف بن تغرى بن بردى
« النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » جزء ١ ر ٢
(لندن سنة ١٨٥٥ م)
- ١٧ — المسعودي (+ ٣٤٦ هـ و ٩٥٦ م) : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي
« مروج الذهب ومعادن الجوهر » جزاءن (القاهرة سنة ١٣٠٣ هـ)
- ١٨ — مسكويه (+ ٤٢١ هـ و ١٠٣٠ م) : أبو علي احمد بن محمد

- « كتاب تجارب الأمم » (القاهرة سنة ١٣٣٤ هـ)
- ١٩ — المقریزی (+ ٨٤٥ هـ و ١٤٤١ م) : تقی الدین احمد بن علی
(١) « المواعظ والاعتبار فی ذکر الخطط والآثار » جزءان
(بولاق سنة ١٢٧ هـ)
- (ب) « اتعاظ الخنفا بأخبار الخلفاء » (بیت المقدس سنة ١٩٠٨)
- ٢٠ — ابن منجب (+ ٥٤٢ هـ و ١١٤٧ م) : أمين الدین تاج الریاسة
أبو القاسم علی
- « الاشارة الى من نال الوزارة » (القاهرة سنة ١٩٢٤ م)
- ٢١ — ابن میسر (+ ٦٧٧ هـ و ١٢٧٨ م) : محمد بن علی بن یوسف بن جلب
« تاریخ مصر » (القاهرة سنة ١٩١٩)
- ٢٢ — ابن هانی (+ ٣٦٢ هـ — ٩٧٣ م) : أبو القاسم المکنی
بأبی الحسن محمد
- « دیوان ابن هانی » (بیروت سنة ١٣٢٦ هـ)
- ٢٣ — عریب بن سعد (+ ٣٦٦ هـ و ٩٧٦ م) : القرطبی
« صلة تاریخ الطبری » (لیدن سنة ١٨٩٧ م)
- ٢٤ — علی مبارک باشا
« الخطط التوفیقیة » ٢٠ جزءاً بولاق سنة ١٣٠٦ هـ
- ٢٥ — یاقوت (+ ٦٢٦ هـ و ١٢٢٩ م) : شهاب الدین أبو عبد الله
الحوی الرومی
- (١) « معجم البلدان » ١٢ جزء (القاهرة سنة ١٢٣٢ هـ)
- (ب) « ارشاد الأديب الى معرفة الأريب » (القاهرة سنة ١٩٠٧ م)
- ٢٦ — ناصری خسرو (+ ٤٨١ هـ و ١٠٨٨ م)
« سفرنامه » (الترجمة الفرنسية . باريس سنة ١٨٨١)
- ٢٧ — مصطفى یرم بك
« الجامع الأزهر » (القاهرة سنة ١٣٢١ هـ)

(ب) المصادر الأفرنجية

- 1 — O'Leary De Lacy — : A Short History of the Fatimid Khalifate, (London, 1932).
- 2 — Gibbon , Edward : « The History of the Decline and Fall of the Roman Empire », 7 vols. edited by j. B. Bury.
- 3 — Lane — Poole, Stanley . (1) « The Story of Cairo » (London 1902). (2) « History of Egypt in the Middle Ages » (4 th ed. 1925). (3) « The Mohammadan Dynasties » (Paris 1925)
- 4 — Margoliouth, D. S. « Cairo, Jerusalem and Damascus » (Oxford 1907).
- 5 — Nicholson, john. « An Acconnt of the Establishment of the Fatimite Dynasty in Africa », (Tübingen, 1840).
- 6 — Le Strange, Guy. « Baghdad During the Abbasid Caliphate,, (Oxford, 1908.)
- 7 — Gaston Wiet : « Précis d'Histoire Musulmane de L'Egypte (Cairo 1933).
- 8 — The Encyclopædia of Islam.
- 9 — The Encyclopaedia Britannica.
- 10 — Historians, History of the World. 27. vols.
- 11 — Mme R. L. Devonshire : Quatre - Vings Mosquées et Autres Monuments Musulmans du Caire (Cairo, 1925).
- 12 — G. Migeon : Manuel d'Art Musulman. 2. vols. (Paris, 1927).

